

الحديث في الفكر

في

أحداث الله بالبراهين الطبيعية

تأليف

محمد فريد وجدي

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواجب الوجود . الحي القيوم المعبود . المنزه عن الوالد والمولود . المبرأ
عن الحدود والقيود . الذي لا يبطنه الحفاء ولا يكشفه الشهود . ولا يحويه مكان ولا
يباينه موجود . الذي تقدس من أن تحيط الافكار بكنهه جماله . وترفع من أن تناله
الرويات في سرادقات كماله . وتعالى من أن تدركه الحواطر في سبحات جلاله .

أحمدك اللهم حمد من يقر بأن غاية المعرفة بك الاقرار بالعجز والتقصير . ونهاية
الخطوة منك التحقق بانك فوق مقدور التفكير والتقدير . وقصارى الايمان بك التصديق
بأنك غير كل ما يهيجس بالضمير ويقبل التعبير .

اللهم اني أشهد بأنك الموجود الذي تنلاشى عزائم التصورات دون الامام بذاتك .
وتتفانى قوى الرويات دون حصر كالاتك . فصل اللهم على محمد الذي بعثه بهذه العقيدة
النقية . المنزهة عن الظنون البشرية . الطاهرة من الفروض الفكرية . التي لو تملاً
الانس والجن على هدمها لفشلوا . ولو أدركها الماحدون لآبوا للايمان وعقلوا .
وندموا على ما فرطوا وجهلوا . اللهم صل على صلاة تليق بذاته النورانية . وتلائم
مقامه من العوالم الروحانية . وتزيده قرباً من عظمتك الرحمانية . وعلى آله وصحبه
شموس الهداية والارشاد . وكواكب العرفان والسداد . ومن تبعهم من بعدهم الى
يوم الدين .

(أما بعد) فان الانسان مولع بالبحث والتنقيب مغرم بالتحري والتفتير يود أن
ينفذ الى صميم الاشياء ليعرف كنهها ويسري الى سرائرها ليتف على مبدأها ولا يصدفه
عن همه هذا ما يصادفه من اخفاق وما يعتريه من عجز . وهي خصوصية ستعلو بمعلوماته

الى اوج لا نستطيع ادراكه اليوم . نهم الانسان بمعرفة ما هو محجوب عنه وكلفه
بكشف ما هو مستور عليه يكاد يستحيل عند بعض الحساسين من افراده الى نار يحترق
لها الفؤاد حسرة وتطير لها النفس شعاعاً ولكنه مع ذلك لم يوهب ما ينقذه من هذه
الحيرة دفعة واحدة او يرفعه الى ذروة مشتهيات روحه . بلا تدرج خشية عليه من نتائج
الطفرة وابتداء عليه من الشذوذ عن المجموع . وهذه حكمة من الخالق جات رحمة
وعناية منه بهذا النوع الضعيف .

ان اكبر المسائل التي يشغل حالمها كل قاب بغير استثناء ويستولى على كل لب من
أية طبقة كان هي الوقوف على حقيقة الحقائق التي منها استمد هذا الوجود روح قوامه
ومادة بقاءه وبها برز الى عالم الشهادة من حجب الغيوب . وقد بلغ الانسان من الاهتمام
بأمر هذه الحقيقة الى حيث فقد الطمأنينة والراحة وصارت كل خطرة من خطراته تعبر
عما يحتاج الصدر من الشوق اليها والحنين عاها .

لا تتصور ان تلباً انسانياً تتمتع بخصائص الشعور والحساسية الباطنية مهما كان صاحبه
نازل الدرجة في العلم دنيء القسط من الفهم يخلو من هذا التحرق او يقل اهتمامه بهذه
المسألة لانها مهما كانت عمومية فانها تستحيل الى مسألة خيالات الخصوصية وليس في نوع
الانسان فرد لا يهتم بحياته او يستوي لديه طرفا البقاء والعدم . طبع الانسان على حب
الحياة وايقارها وجبل على الدفاع عنها وتحري سبل الطمأنينة عاها . وأنى له ذلك وهو
جاعل بأصاها ومحتدا بل بأصل الوجود كله ؟ أنى له راحة الضمير ورباطة الحاش وهو
لا يعلم ما هو ومن أين أتى والى أين يذهب ؟ أي حبان لا يهتم بذاته وأي فاقد الإحساس
لا يؤبه بحياته ؟ اذا كان الانسان يحرق لجهله ما يحيط به من الاجسام ويكاد يخرج من
ذاته ليطال على سريرتها فكيف به وهو يجهل أصل الاصول وحقيقة الحقائق ؟ نعم ان
من الناس من اذا ألم بهم هذا النوع من الشعور تاهوا عنه بما يؤثر على حولهم
ومشاعرهم ولكننا نعلم كلنا حق العلم ان هؤلاء في مقدمة من يعترفون بأن لهم ساعات
من الفكر تكاد تذهب بحياتهم حزناً وكدماً . تلك الساعات التي يتذكرون فيها انهم
سيجأون يوماً من الايام الى اليأس من انفسهم وانهم سيذوقون فيها من ألم الفؤاد ما
يودون معه أن لو كانوا تراباً تذروه السافيات وتبدده العواصف .

ما ذا يريد الوثني من السجود أمام اوثانه ؟ وماذا يريد الملاحد من اقامة الادلة على فناء جثمانه ؟ قد علمنا ان الاول يضرع لالهه المجمعول لينجي نفسه العزيزة من مييدات الوجود . فما بال الثاني ؟ هل أتيسح له من رباطة الجأش وثبات النواد ما يسهل له هوة العدم ويهون له ظلمة الفناء بعد طيب الحياة ؟ لا . أما والحقيقة انه ليكتب ما يكتب وفؤاده يقطر دماً ومهيجته تذوب ألماً بل لم يحمله على تجشم التعسف في التفاسف غير ما في ضميره من وخزات الالم وطعنات الشكوك . يدل على هذا تهاكمهم في هذه الايام على مسائل استحضار الارواح ذلك التهاك الذي نتعجب منه نحن معشر الشرقيين . لا جرم انهم لما رأوا منذاً لطرد شكوكهم التي تقتلهم في اليوم اثب مرة خفوا اليه يهرعون من كل مكان ليؤاسوا بمشاهداتهم الحسية تلك الجراح التي سببتها لهم التعاليم الالحادية المادية .

بناء على كل ما تقدم فالمسألة اللاهوتية هي مسألة المسائل ومفك جميع المشا كل والمعاضل من حلها فقد نال سعادة الأبد وتخلص من كل كمد وهنأ على النفس والولد . ومن فقدها فقد فقد مزية البقاء واستهدف لنبال اللاأواء وعاش في الدنيا آسفاً حزيناً وخرج منها كمدأ مهيناً . نعم هي مسألة شغلت كل حكماء العالم منذ القدم ولم تزل الشغل الشاغل لكبار العقول حتى اليوم وقد طرأ على حلولها من التغير والتبديل وعلى براهينها من التحوير والتحرير على قدر ارتقاء الفكر الانساني ما جعلها في عداد المسائل الرياضية تقريباً من حيث سهولة الاستدلال عليها . وهذه خطوة كبرى من خطوات البشر تعد من مميزات القرن التاسع عشر . لهذا رأينا ان لانحرم ابناء ملتنا من نتائج هذه المحاولات الفكرية الجديدة لنزيهم بالبرهان المحسوس صدق ما طالما تلتنا ورددناه ان كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمى هي تقرب الى ديننا الفطري حتى سينتهى الأمر الى الاقرار الاجامى بأنه الدين الحق . فاللهم نسألك ان تجعل كتابنا هذا خالصاً لوجهك الكريم وان تنفع به قارئيه بحق نبيك ورسولك سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين . آمين

﴿ الانسان والايمان ﴾

اذا كان هذا الجسم المادى محتاجاً لماوى يأوي اليه ليتقى فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التى تكتنفه من سائر جهاته فايست الاحساسات المغوية والعواطف البدنية باقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعتصم فيه مما تجاذبها من عوامل الشعور الذى غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقتنع بما يسد حاجيات جسمانه من مأكل ومشرب ولا يبالي بعد ذلك بما يسوقه اليه القدر فى غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لا يقل حنين احساساته عليها وشغف امياله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور فى بعض الكاملين من هذا النوع الانسانى فآثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطالب جسمانى أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل ماله من بهرج الدنيا وزينتها المموهة . اناشدك الله اما أ لم بك شعور ما فى حين من احيان حياتك بعثك للنظر فى نفسك وه صيرها وفى دنياك واحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف انواعها واجناسها فتولد فىك احساس سام لم يكن فىك من قبل ؟ احساس اراك رأي العين ان ليس لك فى هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولا موئل تعتصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد . احساس اهاب بك عن الركون لمموهات هذه الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التى رانت على قوادك فنعتته من الاشراق على حقيقة سر يخفق له قوادك الذى بين جنبيك . احساس سماوي ليس من طبيعة هذه الجيلة الحيوانية صغر لك الوجود على ضخامة اجزائه وحتر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاظبه تشخيصاً دفعك الى تلمس الخاص منه والحيص عنه . اما والعلم لو لم يكن الله جات حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال فى هذا الشعور لترك الناس عمار الدنيا وخرجوا على وجوههم فى القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدردق ورغباً فى تلمس الخرج من هذه الغوائل المصمية . دع

سهايرة المادة جانباً واطرح اقوال مروجة الزخارف والاباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستفت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستنبي مايتنازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لي الى اي مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفي اي نقطة من هذا المحمد الطينى سكن اضطراب فؤادك الوهان ؟ ثم انبثى بماذا حكمت على الارض وخيراتهما والسماء وثرياتها والمناصب وحفاواتها والالقاب وكرامتها والثروة ومموهاتها ؟ ألم تجل لك كلها هباء منشوراً آيلة الى التلاشي والفناء وان مثاها اليوم بالنسبة ليك كمثاها فى الغد : اسباب شقاء وبلاء ومثارات شدة وغناء ودواعى آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان او غير التجارب عرفان ؟ لقد رأيت من قبلك ممن نال من بسطة الخياه والسلطان ولذة الثروة والشان رجالاً سجد الناس امام آرائهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مصيرهم والى اى بيئة وصل امثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القذر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر وغرتمهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم عن عروشهم كما تهوي الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان فى لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فى امثال هذه المرامي السامية التى هي من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل باقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هي فى مكان وزمان اشد منها فى زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيهم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامي وتريثا انه فطري فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوامح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقظ فينا هذا الشعور وتجعله فى اشد درجاته فما مرض الاقرباء والاصدقاء وما حزن الاولياء والأخلاء وما مصائبنا فى النفس والاهل والمال الامنيات لهذا الشعور ومذكرات له وما اكثر استهداف الانسان لمثل هذه الحادثات فى مدى حياته القصيرة الأمد . الانسان فى اثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج الى مواس يواسيه وهوال يواله الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمن وتأميل حتى يكتفى الانسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توها كما هو شأنه فى بعض الاحيان بل هذا دور جد وعمل ينبعث الانسان فيه لتلمس تأسائه حقه يصرف بها حرارة هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس

فؤاده وناهيك به من سعي . نعم يحتاج الى مؤاس يفتحه بما يشكو منه . معتقداً انه اشفق عليه من ابيه وأمه ومن الناس اجمعين . مؤاس يحس انه مهم بشأته وقادر على تخطيه مما وقع فيه . مؤاس يرضى الانسان أن ياتي نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقيانه على نهج الطريق .

اذا أصيب الانسان بمصيبة تغطي فؤاده ناراً وكادت نفسه تطير شعاعاً وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضؤولة قواد وحوله وأدرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل وعرف انه فيه غريب فريد بل طريد شريد . انما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقيلاً له من تعثره في ذبول لأوائه . يرفع رأسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح في آل النضاء والصمت شمارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينه الى الارض فلا يرى الا غيراناً وجبالاً وهضاباً وتلالاً ان ناجها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع الى نفسه فيرى حوله قومه وبنى ابيه وليس فيهم واحد منزه عن مثل ما ألم به فليسوا بأقل احتياجاً للتمس الخاص من مهددات الوجود ومهددات الحياة . اذن ما ذا يعمل الانسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموتف الصعب باى ركن يعتصم والى اى ملاذ يلوذ ؟ على اى سند يعتمد وفي اى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا الترامى بين يدي تلك القوة الازلية التى اخرجته من العدم (١) وقضت عليه بما هو فيه من الشفاء والحنه . تلك القوة التى اقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة المتناهية . تلك القوة التى لم تضع شيئاً في غير محله ولم تهب شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التى وهبت الانسان هذا الفكر الطموح والعقل الجموح والاحساسات المتعاكسة والاميال المتضاربة لحكمة بالغة ومقصد عظيم . اذا التى الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة ثاج صدره واطمأن على نفسه لتحققه ان هنالك قوة معنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه في احساساته ويشاطره في احزانه واشجانه فكيف به لو فقد الثقة باصل حياته ورأى نفسه في هذه الانهائية

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) في هذا الموضع فان المقام اقضى ذلك

وحيدا ضعيفاً مهدداً في كل لحظة بما بيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل في كل حركة من حركاته في اعماله فكيف به لو تولاه اليأس في وجود من يعتمد عليه عند ما تلجأ به جسام المصائب وعظام النوائب ؟
الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجسمانه فهو محتاج في كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كفاية يوجه اليها تلك الاحساسات والرامي فكيف به لو عمي عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جال وكل ولم ير في كل هذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكون المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجراح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع مجيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراسته القابية ولا مناجاته السرية ؟ أليس من الثقيل عليه ان يرمي ببصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوناً مرعباً ؟

لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائماً اشفق المساكين له في مصائبه وأرأف المعزين له في نوائبه . فكلم فؤاد موحج بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبده حري لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ما ذا يهبط روح السكينة والتأسأ على عزيز قوم ذل او غني قوم افتقر اذا جالس يفكر فيما آله حاله وسط الليل الحالك وهو يتنفس الصعداء غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى ويقدر على منحه الصبر على مصيبتيه او القوة على استرداد ثروته . ثم ما ذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح أم فقدت ولدها في ريعان شبابه وديعة صباه غير (ايمانها) بأنه اصبح وديعة لدى مبدعه الذي هو اشفق عليه منها في عالم غير هذا العالم . ثم قل ما ذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر ؟ أما يسوغ لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانية وضرورة من ضروريات الحياة الارضية من فقدته فقد فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بيمينه . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نرى ويرى اهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون في الصبر على المكروه والجلد عند لقاء الملمات على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى تد تنهي الحالة ببعض

الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤدريهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم ولعل هذا هو غاية مايشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حيارى وجلين ينتظرون وقوع المحن عليهم وبصبحون خائفين واهمين يبكون على انفسهم قبل أن يحاط بهم أن يسعوا في تقوية ايمانهم وتنميته بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وتباً ثم يعود اليهم الوحل بأشد مما ذهب . على ان الفرق بين الطريقين عظيم . فان الرجل الذي يعمل لتناسي ما سيحقيق به من النوائب في اهله ونفسه يحنى على ذاته جنائيات لا تغتفر : (أولاً) لانه بعدم تقوية ايمانه يحرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة في القاب لا يعلم تدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائليهم : نحن في لذة لو غامت بها الملوك لقاتلونا عابها بالسلاح . (ثانياً) لان بحشه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متأنه المحظورات الانسانية القاتلة التي تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شيء في الوجود بغير حكمة وان اكل عمل نتيجة ورأى نفسه يشعر ويتألم ويفتكر في المضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم في رقي مستمر لم ينهزم اعلم مايؤمله من حالات الحياة التي تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التي تحزّه من كل جانب بل وقف وثقة الثابت الجليلد وألقى على نفسه هذه الاسئلة : ما ذا أنا . ومن اين آتيت . والى اين اذهب ؟ ما هي الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت على هذه المؤلمات ؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتي به ؟ هذه الاسئلة وضعها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجأت له على حقيقتها وازدادت نتائجها في فؤاده رسوخاً تارة بالعلم الذي تهديه اليه مشاعره الظاهرة وطوراً بما ينبع في صميم معناه من الالهام الصحيح . فاستوى بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش حصلاً على احسن ما قدر للانسان من سعادة دنيوية .

اذا كان الايمان كما ذكرنا روح الحياة الطيبة ورسول السكينة والطمأنينة الى الارواح والمعزي الاول للانسان على ما يصيبه من مضالك العيش وهمومه . فما السبيل الى ايجاده في فؤاد الانسان واسكانه في المكانة التي تليق به من صميم الذات البشرية ؟ كيف السبيل الى هذا في عصر كثرت فيه الشبه والشكوك وطمت فيه الاشكالات من كل نوع

وظهر فيه رجال ادعوا انهم نسفوا اساطين العقائد وهدموا اركانها الثابتة وسمحوا لانفسهم بأن يكونوا نذراء اليأس ورسل الظلمات والغياب الى الافئدة البشرية الضعيفة بما كتبوه في كتبهم السافلة ونشروه بين الخاصة والعامة ؟ لاجل ان يسمى الايمان ايماناً يجب ان يكون بعيداً عن مظان الشكوك والريب متعالياً عن متناول الاعتراضات والشبه فكيف السبيل الى ذلك الايمان الثابت والناس يسمعون ان العلامة فلاناً ما وجد والفيلسوف فلان لا يصدق بشيء ؟

نقول : السبيل الى ايجاد ذلك الايمان الذى لا يزول ولا يتزعزع خصوصاً بالنسبة للمسلم صاحب الدين الفطرى هو ان يعلم ما هو الالحاد فى ذاته وما هي المقتضيات التى استلزمته . ثم ما هي العلاقة الموجودة بين العلم والايمان وهل احدهما ينفي الآخر أو هما توأمان متلازمان أو هما شيء واحد يعبر عنه لفظان مختلفان ؟ ثم يقف على الشبه التى يلقيها الماديون الى اصحاب الاديان ليرى رأيه فيها . نحن اذا سلكنا بالقارىء هذا الطريق تجلّى له ثلاثة امور مهمة واتضح له صحتها بالبرهان الحسى الذى لا مرية فيه وهي : (أولاً) لا ما وجد فى النوع الانسانى فى الحقيقة ونفس الامر وان غاية المسئلة هي تحاور فى الالفاظ وتناقش فى التعبيرات . (ثانياً) ان العلم هو الباعث الاول للاعتقاد والايمان واكبر سائق اليه وان الانسان كلما ازداد علماً ازداد يقيناً . (ثالثاً) ان الغاية التى وصل اليها النوع الانسانى من الايمان هي ما قرره الاسلام من عقيدة التوحيد والتنزيه لانها عين ما هي عليه الفطرة الانسانية . (رابعاً) ان الشبه والشكوك ما تولدت ولا تتولد الا من حيدان الانسان عن دينه الفطرى الذى هو الاسلام . (خامساً) ان زمان الالحاد (او سوء التفاهم) قد انصرم وانقضى وانا فى عصر اصبح (الايمان) فيه على رغم الانف بمعنى انه اصبح بعيداً عن الشبه والشكوك بما فتح الله تعالى على ابنائه من البراهين المحسوسة . لنبدأ الآن فيما تصديننا له بتفصيل شاف ولننقل كل ما يقوله الماحدون لنحاكمها امام العلم والعقل والطبيعة لنصل الى الغاية التى رسمناها لانفسنا والله المستعان .

﴿ الايمان في خلال القرون ﴾

مرّ الانسان من حيث الايمان على ثلاثة ادوار مهمة لكل منها مميزات ولوازم خاصة به . أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً ايماناً فطرياً مسوقاً الى الاختبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك ولم يك يفتقر هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجري وراء مطلوبه منه . يمتاز هذا الدور بتنزعه عن الشهوات والشكوك فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الايمان وما هي الحيرة في صحة العقيدة او عدمها وسيمر بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب الظنون والاقاويل . هذا الدور يتبدى من مبدأ الخليفة الى قبل بعثة المسيح ببضعة قرون لا يمكن تحديدها بالضبط .

أما الدور الثاني فهو دور الفلسفة والحكمة وفيه فتقت انوار العقل حجب الكشافات الطبيعية واخذ الفكر يجول في موامي التصورات السامية والمدرجات العالية ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته عنه يد القدر من عالم الشهادة وعوالم الغيوب .

يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه وسريان شياطين الشهوات الى العقول من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية . وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية ضرورية لان العقل الانساني لما اراد ان يتفصى من اصفا هذه الطبيعة الكثيفة ومال لأن يفتق تلك الحجب التي تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزم تلك الدفعة ان يطوف من المدرجات على ما يلائم درجته من الرقي فكان الخيال قائده في تلك الرحل الفكرية وناهيك بعقل يرشده الخيال وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه . لا جرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة فكان من الضروري ان يهب عليه ما يتائل به عن الوقوف في مركزه وتضيح به لأن

يشرئب الى ما فوق ذلك ليعلم ان الحقيقة ابعد مما كان يتوهمه . لذلك بعث الله تعالى عليه روحاً دافعة ظهرت بمظهر الشبهات والشكوك لتسوته رغم انه الى غاية ما يمكن ادراكه من معنى اللاهوت الاقدس .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان وحمي الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول في الامم حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

أما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعي والفلسفة الجسية وبتدئ من حوالى القرن السادس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . في هذا الدور استطار هب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية وحملة النصوص الاعتقادية وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل وقتي لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثاني في الابعاد عن العلم والتنبيه بمجافة العقل وما يثره الفكر . ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بني هذا الدور بحيث عدت التعاليم الالحادية من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام الجائرة السريان بين العوام رغم انه حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة وهو الدور الذي نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانساني فيه الرجوع الى دينه الفطري البعيد عن مظان الشبه المنزه عن مثرات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لا بد من الامام به . فنقول :

﴿ الدور الاول ﴾

« دور الفطرة »

اختلف العلماء الباحثون في اصول الاديان في اول معبود عبده الانسان في اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالها ثم اخذ في الترتي فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقلي والفكري ولم يزل يتنقل من دور الى دور حتى وصل من فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه (باسكال) و (جول سيمون) و (رينان) واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخالص . ولم يحدد هؤلاء المسادين

الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمسة . ومال الروحيون من الفلاسفة (١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكمل صورة من صور التنزيه والتوحيد واما عبادة الاوثان فهي عرض طارئ اقتضاء ميل الانسان الى تحديد كل ما يحس به احساساً مبهماً . فيكون محمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه . كلازم من لوازم روحه ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه فوقع في اوهاق الوثنية على اختلاف اشكالها وكان من امره في ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيعربك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهي نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الخيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء الباحثون في اصول الأديان ومناشئ العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم تدين المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسينيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان اعتقها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . » وقد تصدى اكبر عمراني العصر (هيربرت سبنسر) لهذه النظرية في كتابه « الأصول الأولية » فدحضها دحضاً وظهر فسادها بواسطة التحليل العلمي الدقيق . اما النظرية الثانية فهي السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحقيقه بالاختبار اذا صعد الانسان بمنطاد بحثه الى منشأ العقائد في الانسان وهذا الامر مهما كان صعباً فان وراءه رجالاً يهتمون به غاية الاهتمام ويبذلون في سبيل استكناه له كل مرتخص وغال . واحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس مولار) الامريكي فانه كتب فيه كتاباً جليلاً سماه « اصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية الهندية وهي ابعد الديانات عهداً واقدمهن تاريخاً بأن الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته الغير محدودة واما هذه الأوثان والاصنام فايست الابنات الخيال استدعاها محبة الانسان للمس كل ما

(١) نعتي بالروحيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين طبيعة مادية هي هذا العالم المشهود وطبيعة روحانية هي عوالم ما وراء المادة .

يشعر به في نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلاً طراً على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن اصل الأديان كلها واحد وما سبب اختلافها الا ما أحدثته النزغات الانسانية والاهواء النفسانية من حب التوحيد والتقييد والحصص .

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق فلا ينطبق على علم ثابت ولا يستطيع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط ببعيد عنهم فانهم متى رأوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل اعتادوا التعسف في التفسير وملاؤا الارض احتمالات وفروضاً ولو كان اعرق في السفطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلمهم قائلاً : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسماً قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والحيال والاولدية والاشجار بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التوحيد ؟ لا يتصور ذلك بوجه من الوجود . اذن فاول عبادة عبدها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان ابائنا الاولين كانوا محددين مجسمين لا مطلقيين منزهين ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا تجد فيها لفظة (لانهاية) . نقول ان خلو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناه . على انها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينيهما حالا في اثناء الخطاب كقولنا : لانهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط الاسود والابيض والاحمر والاصفر فهل يصح ان يقال انهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلتها النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألسنت ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجد في نكركه من اوصاف

المبالغة ماهو اقرب من قوله : تلك بلدة مالها اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن فظريية المسادين قاصرة ولم يحد بهم الى اعتناقها الا اصولهم الفاضية عليهم بعزو جميع المدركات الى الحواس الخمس وما اضيق هذا المجال واحرجه ؟

لايجدر بنا ان نختم هذا الفصل حتى ننبه ان فيه معجزتين عظيمتين تعدان من اكبر المعجزات لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم ومن اوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قلب يذوق العلم ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ما كس مولار) ان الانسان مفطور على (الدين الحق) لاتعد منه الا ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزلت على سيد الوجود قبل ميلاد (مولار) بثلاثة عشر قرن تقريباً وهي : « فاقم وجهك للدين خيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبدل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يحدث بها في العالم العلمى الاوربى الا في القرن التاسع ولم يذعها الا كتاب الاستاذ (ما كس مولار) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتهما) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ الموماليه ان اصل الأديان كلها واحد وان ما احس وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه مايحس ويعمل به اكبر انسان في العصر الحالى . ولا تغرنا الالفاظ المنفوفة والعبارات المزخرفة والاساجيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل باقل شعوراً بها من وجدان اكبر فيلسوف . وهذه ايضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بان اصل كل الأديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد .

﴿ الدور الثانى ﴾

« دور الفلسفة »

كان الانسان في دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما اثبتنا ذلك في الفصل المتقدم فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه وكيف يشك الانسان فيما يحس به في ذاته ويشعر بالدافع له اليه ؟ ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التملى بمجالى هذه

الطبيعة الباهرة وتبعته للحكم عليها بقدر ما وهب من القوة المميزة اخذ قبل كل شيء يبحث في موضوع عبوديته واخباته وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق في هذا الكون العجيب فجال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ماهيات الظواهر عن حقائق البواطن وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمغاور فهب يشخص الهه على مقتضى حواسه الشخصية وخصائصه الذاتية ثم اخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الأصنام والتماثيل وملاً بها الهياكل والمعابد وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبايح اليها واقامة الحفلات والولائم لها وصار يرقى معبوده في الشكل والخصائص كلما ارتقى درجة في التصور حتى انتهى حالها من جمال الصنع ورشاقة الوضع الى ما وصلت عند قدماء اليونانيين والرومانيين . في هذا الدور دور الخيال والتعقل كان الله تعالى يرسل رساله تترى الى الامم بالعقيدة الفقية الخالصة من قدر الظنون وكدر الخيالات ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذي ألبسوه انفسهم فما كان يهتدي منهم الا الذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ما هم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان في كل زمان ومكان بشدة الكلف بدينه وعظم التمسك بمعتقداته فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليأس وينتصر لها انتصار المهضوم حقه المصاب في عرضه ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه حتى قتل بهذه الحجة انوفاً من الانبياء ومئات من الحكماء واصحاب البصر وعد قتالهم نصرة للدين الحق على الباطيل . ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائي ضد عقلاء افراده حتى تفجرت ينباع الحكمة في باحات القلوب ولطفت احساسات الناس نوعاً بواسطة تلك العوامل التي خلقها الله تعالى لايقاظ هذا النوع فتيين لهم (١) ان الوثنية عبء ثقیل على المدارك واتضح لهم انها بنت الخيال ونبت الضلال فأفردوا للكون الهاً واحداً وعزوا اليه من الاوصاف منتهى ماوصلت اليه مداركهم .

هذا الرقي التدريجي في الدين بشاهد باجلى مظاهره عند براهمة الهنود ليس في

(١) نحن لا نريد عموم النوع الانساني وانما نريد ارقى الامم منه فانه يوجد في كل

عصر امة يتركز فيها مبلغ الرقي الانساني كله .

المجتمع فقط بل في العائلة الواحدة . روى الاستاذ (ماكس مولار) الموما اليه في نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله فترى الاب الهرم في عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لسنمه المعبود وعن يمينه ابنه الثانى يرتل الاشعار الخيالية في مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركاً لعقله حق التصرف فى ايصاله الى نقاء العقيدة .

فى هذا الدور كثر النجادل والتابذ فى اصول العقائد وكان اختلاف الناس فى المدارك وتباينهم فى درجات التصور سبباً فى انفراج مدى المذاهب بينهم فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره على حثية الصفات التى يعزوها للخالق جل شأنه ويكلف نفسه الاتيان بمزاعم خصمة ويكر عليه بالحجج الداحضة حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور فى الالفاظ وتناقش فى الاصطلاحات مما يدل الرأى انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساغ بطرد شيطان هذا الشقاق . وانى يستتب الوفاق بين احزاب جعل العقل المجرد متكأ للحكم على اصل الاصول وحقيقة الحقائق . لا جرم ان اختلاف يكون بينهم مستحكماً والثغار سائداً على نسبة اختلاف البشر فى درجات العقول وتفاضلهم فى مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة للاخذ والرد وكان من اساليبها المعمول بها فرض الفروض التى لا تعقل وتكلف الرد عليها كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور بل من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط فتقمصوا لباس المشككين المرتابين وظهر فى كثير من الامم رجال جعلوا ديدنهم التشديق بنفى الصانع وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عند ذلك مادامت المسئلة أصبحت فوضى وصار العالم الذى يشار اليه بالبنان هو الذرب اللسان الشديد المحاولة فى كبج الحصوص واضفى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب لتكون بمعزل عن مماسك علم المنطق ؛ لا مانع من كل افراط وتفريط لصوغ النظريات ما دام السلطان المطلق للجدل العقلى ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الالحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فنشأت بينهم وبين الاعتقاديين حروب قاميه استحالات الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول في ايجاد الشبه الدقيقة ومهروا في صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اراكين العقائد من اصولها ويذرون بناءها الشاخص في عواصف الشكوك فلم يسع حفظة العقائد الا التألب على دحض مفترياتهم وسحق نظرياتهم غير انه لم يمض الا قليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالآلاف لا يحجمهم اصل ولا يضمهم فرع فركن حزب الدين بماله عند بعض الامم من نفوذ الكلمة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة بعد ما اعلنوا ان البحث بالعقل في اصول العقائد محظور ظناً منهم ان القوة تفعل ما لا يفعله الانفعال بالبرهان فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ما ينفر منه طبع الانسان ثم اوغلوا في تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ومالاهم على ذلك اصحاب السطوة والسطان وما علموا ان صرامة العقوبة لا تستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ولا ان تعكس سير الاقبال البشرية وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء والكلم انكاء واستشراء والنفوس جاحاً واباء . وفي الواقع رأيناهم كلما تشددوا في التشفي والانتقام اشتد ساعد الاحاد واندلع لهبه بين الافراد حتى حدثت في الأذهان ثورة فكرية تبعها ثورة فعلية قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهاته الأولية وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية . هنالك ظهر من الافكار ما كان مستوراً مكنوناً وظهر على رؤوس الاشهاد ما كان سرّاً مصوناً ولعبت هزة النصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلث فيه اقبح الأدوار الما ليخولية على مراسيح تلك الحرية العلمية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية فصار من المقرر عند الاكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى وانه لا يمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل في دور الحرية العالمية الذي نريد ان نشبع الكلام فيه فنقول :

﴿ الدور الثالث ﴾

« دور العلم »

لم يمر على حفظة العقائد دوراً اشد هولاً من هذا الدور . على ان حدوده مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امراً منتظراً لا بل حادثاً

طبيعياً لأن كل الرذائل التي شوهدت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذي سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكبت حملة بعض الكتب السماوية في الدور الفارط غايات افراطية استدعت ما يقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنازعين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب الفطر السايمة . وهي سنة من سنن الخالق تشاهد في كل خطوة من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغايات الافراطية ضغطهم على حرية العقل والعلم واهتمامهم بمحصر الافكار في دوائر ضيقة لا يمكن اجتيازها وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل انهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقرارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبههم بوصفه بما يروق لعقولهم وترضاه لهم مداركهم وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاقبة كل من يبتأسفهم فيه . ومنها حسابهم مسائل خالق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وتصرفاتها وعجائبها على ما وصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

باغ الغلو في حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا الكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فنكلوا به شر تنكيل واذاقوه العذاب الوبيل فكهم احرقوا من عاماء وصابوا من حكماء وسموا من نبلاء ازكياء حتى شوخوا وجه الدين وجعلوه عنوان العسف والاجحاف بعد ان كان رائد العدالة والانصاف . ولكن بهيات ان يوتفوا سير ناموس الرقي الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله الغير محصورة الى اجتياز كل عقبة وتحطى كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تنبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس الخاص من هذه السيطرة المخوفة المخفوفة بالمكاره وكلما نمي فيهم هذا الشعور بتوالي تلك الضربات القاسية وحميت حرارة الاسى في سويداء افئدتهم انفجرت ينباع مواهبهم وملكاتهم واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعتهم على الثبات والمصاولة فصار اولئك الغلاة كلما صدوا لهؤلاء تياراً لاقاهم تيار اقوى منه سيراً حتى بلغ التدافع منتهاه وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يستأنف نألأنا

الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين ما تعاصى عليهم بالقوة فاخفق مسعاهم ولم يلبثوا ان يحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسعهم الا الصمت على مضض منتظرين ما يأتى به القدر .

هذا ما كان من اولئك اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعد ذلك التقييد الجهنمي فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلاً من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحملوا العامة على تقايدهم في منهاجهم استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لازالته من الافراط والتفريط ففهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقة كانت او باطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شيء لا يقع تحت حسه . ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية في الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لا تدري اي الطرق اقوم ولا الركون الى اي حزب اسلم فادتها تلك الحيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم في البقاء واستنزاف الاغنياء لسائر اوقاتهم في الشغل بتعصباتهم الاشعية فصار العامل يصبغ مشتغلاً بجسمه ومخه حتى يمسي ثم بتقاضى اجره درهيمات معدودة ويذهب الى بيته فتنهال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسلياً له من هذا الكد الواصب والهم الناصب غير معاقرة بنت الحان فيصرف عليها ثاقي اجرتة ويترك اولاده يموتون جوعاً (١) .

هذه الحالة التعيسة تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير المنظمات وتبديل الاحكام وابادة الحكم واصحاب الحطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظامنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمنزلة الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المستورة في بطون الاوراق وما هي تلك الفئات التي تدعى لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبختر في الاستبرق والحرير

ويتهادى بين الحياض والازاهير وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء وتوقع الفناء تحت كلاكل الضراعة والضراء ؟ كلا . ان العدالة كل العدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب حتى لايفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغبة السنية بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . بالقنا والقنابل . بالمدى والمقابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويخلى عن الوجود هذا الظالم الميين .

هذه فرقة من فرق كثيرة يعد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الالحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنية المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتسدنة ان يتصدع ان لم يتداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن ألقت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو الفطر من انوار اليقين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالى ويسترجعون ذلك الاكسير الثاني ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يعد من الممكن ادهاشها بخيال ولا الهاؤها بزخرف مقال . اشعرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلى تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضى واتضح بطلانه في الحاضر وعلمت ان ارتكانها على معقول لايسنده من جانب الحس دعامة قوية لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فهبت تسترد اصول العقائد واكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن باسنة البرهان .

هذا اجمال لا بد له من تفصيل فلنشرع الآن في سرد اهم شبه الملاحدة ونرد عليها من معناها فنقول :

﴿ شبه الملاحدة من الماديين ووجه فسادها ﴾

كنت وانا مشغول بالعلوم التحضيرية عن الخوض في المسائل الفلسفية اعجب من وجود غافل ينكر وجود الخالق لاني كلما كنت اجيل هذه المسألة في فكري واحاول

ان اجد للملاحدة مجازاً الى هذه القرية الخزية ومساغاً الى التفوه بهذه الاضلولة القبيحة ارجح بخني حنين واكاد اتميز غيظاً من اولئك الذين يسمحون لانفسهم بالنلفظ بشيء لا يجد العقل طريقاً الى قبوله . الا اني لما كنت اسمعه عنهم من بسطة العلم والمملكات العالية كنت اعجب غاية العجب ولو لم أر للالحاد من سبب . وكنت اود لو اتف على براهينهم وادلتهم لا تشككاً مني في معتقدي . معاذ الله . ولكن لا بلاغ عقلي شهوته من هذه الافكار العجيبة . فلما اتاح الله تعالى لي حظ الاشراف على دقائق الفلاسفة العصرية وانا في حظوة الاطلاع على تلك المباحث الالحادية رأيت ان استشكالانهم وادلتهم (ان كان يمكن ان يسمى كلامهم ادلة) نوعاً من الجنون العلمي والهوس الفلسفي لا يكاد الانسان يلم بها حتى يخرج ساجداً لله تعالى يدعوه ان يحميه من شر هذه الما ليخوليا المضحكة المبكية . ولما كنت اعلم ان كثيراً من الشرقيين لم يزالوا يتوهمون ان لاولئك الملاحدين براهين قوية وحجج متينة عامية تعوز الجد في دحضها رأيت ان اسردها عليهم في هذه العجالة ليتحققوا انها سفسطة فارغة لا يقبها عقل ولا يؤيدها لهم علم وانهم قوم شدوا عن الفطرة البشرية ارض حل بجوهرهم الانساني ليس الا . وهذا احسن ما اعلم به حالة الملاحدين وسيعذرني القرآء على هذا التعليل بعد ما يقفون على مبلغ اقوايهم .

يزعم الملاحدون ان المؤمنين بالخالق يزعمون انه في السماء يشبه الملوكة في الارض وانه جالس على اريكة الجلال والعظمة يبرم اليوم ماعقده بالامس لشفاة شفيع او اضراة متوسل . وقد رسخ في اذهانهم ان هذه هي العقيدة العامة حتى وقعوا بواسطتها في كثير من الاغاليط التي يجب ان يحل عنها العقلاء . اليك مثالا لذلك : لما كتب العلامة الشهير (اوستيد) قوله : « ان الكون محكوم (بحكمة ازلية) تظهر لنا انا عيها بواسطة القوانين الثابتة في الطبيعة . » لم يرق ذلك في اعين الملاحدة ومنهم الدكتور (بوشنر) بسبب تلك التهمة الباطلة التي تخيلوها في المؤمنين فقال : « لا يمكن ان يتصور احد ان تحدد حكمة ازلية مع نوااميس طبيعية ثابتة . فاما ان تكون النوااميس هي الحاكمة واما ان تكون الحاكمة هي تلك الحكمة الازلية . فاذا كانت الحكمة الازلية هي الحاكمة فلا لزوم لقوانين الطبيعة واذا كان الامر بالعكس وكانت النوااميس الطبيعية هي الحاكمة فان ذلك ينفي كل تداخل سماوى . »

اما والعلم ان هذا الاستشكال عجيب صدوره من عاقل عنده قليل من الروية ! هل يغيب عن مثل (بوشنر) ان يفكر ان هذه القوانين الطبيعية التي يسميها نوااميس طبيعية ليست هي الا آثار تلك الحكمة الازلية الفاعلة في اجزاء الوجود وليست هي في ذاتها اشياء مستقلة ؟

ولكن سبحانك اللهم ما اجل سلطانك ! ان بوشنر هذا قد عارض نفسه بنفسه واقام الدليل على فساد استشكله وهو لا يشعر . وذلك انه لما انتشرت الكوليرا في بلاد الانجليز واخذت تفتك بالناس فتكا ذريعاً طلبت هيئة (الاكليروس) الانجليزى من اللورد (المريستون) وزير الدولة ان يصدر امراً يأمر الناس به بصيام يوم والضراعة لله فيه بازالة الكوليرا . فاجابه اللورد بأن ملاشاء الكوليرا لا تتأني الا بالتخاذ الوسائط الصحية ولا دخل للدعاء والعبادة في مثل هذا الحادث . فدحه الاستاذ (بوشنر) هذا واثني عليه وقال من مقالة كتبها : « كيف يعقل ان المشرع الاقدس يخالف ما وضعه من النوااميس والقوانين الثابتة بدعوات الداعين وبكاء الباكين . » انظر كيف ناقض نفسه بنفسه لانه قال في رده على الاستاذ (ارستيد) انه لا يمكن تصور وجود نوااميس ثابتة متحدة مع حكمة ازلية وهنا يستبعد ان الخالق الاقدس يعارض سير النوااميس التي وضعها بنفسه وحكم بها مخلوقاته . هنا ربما يقول القارىء ان هذا ليس بدليل على نفي الخالق ولا استشكال يليق ان يلتفت اليه . نقول ان اردت مطالعة شبه الملاحدة واستشكالاتهم فوطن نفسك على صرف ساعة من زمنك في مطالعة امثالها في هذه الوريقات واصبر لحكم ربك ولا تتصور انك ستتمر بشيء ينفع له فو آدك ويهم فكرك لمحاربته . نعم سيمر بك ما تنفعل له على تحسينك الظن بهم وبسمو مداركهم قبل ان تقرأ خزعبلاتهم .

اليك ضلة ثانية ليست باقل استحقالاً للزدرء من الاولى وهي زعمهم ان الخالق لاجل ان يكون موجوداً يجب ان يكون خارجاً عن الكون . اما نحن فلا ندرى من اين اتاهم هذا الوجوب بل ولا كيف يتصورون ان السبب الاول للوجود يجب ان يكون خارجاً عنه . لا يجب على الانسان ان يحكم بانفصال شيء عن شيء او باتصال شيء بشيء الا بعد المامه بشكل كل منهما وما يلابس صورتها وذاتهما من صفات واعراض . فهل وقف هؤلاء على كنه الوجود المادى وكنه الذات الالهية حتى يسوغ لهم الجزم بانهما

منفصلان عن بعض ؟ يقول العلامة هودسن تتل : « كل ما في الوجود من اول ذرة الهباء الى عقل الانسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير . وبناء عليه فلا صانع للوجود . » نقول : سبحان الله مقسم العقول وواهب المدارك ان هؤلاء بدل ان يتخذوا نظام الوجود والوئام السائد عليه والحكمة المستفاضة على كل ذرة من ذراته ادلة على وجود الخالق وبراہين على تنزهه عن العبث والخراف نراهم بالعكس يتخذونها حججاً على نفيه . كأن حضراتهم يتوهمون ان الخالق لا يصح ان يكون شأنه الا كشأن الملوك المملوكين لاهوائهم الذين يبرمون اليوم ما نقضوه بالامس ويحلون في الغد ما عقدوه اليوم . ايهما ادعى للتصديق بوجود فاعل متمتع بارادة وحكمة واختيار . أأحجار تراكت على بعضها جزافاً بدون نظام ولا ترتيب ام احجار نحتت وصقلت ووضعت فوق بعضها على نظام هندسى متقن وصارت هرماء كأحد اهرام الجيزة ؟ اما على حسب عقول هؤلاء فيكون الادعى للتصديق بوجود الصانع المرید المختار هو الفرض الاول لا الثانى وهذا من الهوس بمكان . لعمري ان الانسان ليحار في امر هؤلاء الماديين لياسه من التوفيق بين متعاكسات اقوايهم ومتشاكسات اصولهم . وذلك انك بينما ترى ان افراداً منهم يؤكّدون بأن الطبيعة قد تكونت على ابعد ما يتصور من نظام وتدير وانها محكومة بقوانين ثابتة لا تتغير ولا تبدل وهي من الحكمة بحيث تضمحل عزائم الفكر الطموح دون النفوذ الى استقرارها ويستتجون من هذا النظام والابداع عدم الحاجة لصانع مختار متصرف ترى فريقاً آخر منهم يتهم بعض اجزاء الطبيعة بالخال والتشوه وعدم الحكمة ويستدل من ذلك على نفى الصانع قال الاستاذ (جييل) معترضاً : « ان الاستاذ (فوجت) شاهد وجود حيوانات خثى لها اعضاء تناسل الجنسين معاً ومع ذلك فلا يستطيع الفرد منها ان يلقح نفسه بنفسه . فلاى فائدة وجد هذا التركيب ؟ ويوجد من الحيوانات انواع كثيرة الأخصاب لدرجة انها لو تركت وشأنها لملأت البحار في مدى سنين قليلة وغطت سطح الأرض بطبقة ارتفاعها كارتفاع السيوت . فلاى حكمة هذا التركيب ؟ » كل ذلك على زعم الاستاذ (جييل) خال في الحاق لا حكمة له وكان يمكن على حسب هندسة حضرته . . . ان يكون الوجود بنظام ابداع من هذا بكثير بخ . . . كيف ذلك يا ترى ؟ قال لأن « الطبيعة يمكنها ان تكون الجسم الانساني

بطريقة تنفذ منها القنابل بدون ان تحدث بها ضرراً ويقبل ضربات الصوارم بدون ان يخرج . »

فيالبت شعري ما هذا التناقض الين بين اقاويل زعماء هذا المذهب وماهى هذه الفوضى العلمية العجيبة ؟ ما الذي ينتظره الناس من رجال عموا عن بدائع هذا الوجود فناموا يصمون هذا الجمال المطاق بوصات لا وجود لها فى الواقع غاية الامر انهم عجزوا عن ادراك سرها والوقوف على جليلة امرها فهبوا يهرفون بما لا يعرفون . فلندع هؤلاء قليلا مع وسواسهم بفساد الطبيعة وعدم كمالها .. ولننظر الى الدلالة (بوشنر) لنسأله عن سبب الحادة لنرى هل هو من هذا القليل ام من قليل آخر . قال حضرته فى كتابه المسمى (المادة والقوة) : « لم يشاهد أبداً فى أي مكان حتى فى ابد منى من الفضاء الذي ندركه بالنسكوب ظاهرة شاذة عن النظام تسوغ للانسان الاعتقاد بضرورة وجود قوة مطلقة ذات تأثير على الكائنات ومتميزة عنها . » نقول يا للعجب لقد بنى بوشنر الحادة على عكس ما بناه عليه الاول . فكيف اذن لا يحار الميب فى كيفية هدايتهم ! ان اثبت الانسان للبعض حسن اتساق الوجود واستلقتهم للابداع المستفاض على كل ذرة من ذراته والحكمة الشاملة لجميع مكوناته وارغهم بذلك للاقرار بوجود الصانع صاح به بعض آخر من الذين يدعون ان كمال الوجود يقتضى نفي الخالق قائلين : نيم ان ذلك ليدل على عدم متصرف مختار لان هذا الثبات فى الحكمة يدل على ذاك تمام الدلالة . كأنهم لا يريدون ان يعتقدوا بمتصرف ما فى شىء ما الا اذا كان يهدم اليوم ما بناه بالأمس وبالعكس . ثم ان التفت الانسان الى البعض الآخر وبرهن له ان التخالف الشديد الموجود بين الكائنات والتباين الهائل الكائن بينها يدل على وجود صانع متصرف مختار لا تحد قدرته ولا يستقصى ابداعه صاح بنا الفريق الأول وقال : « ما حكمة وجود الامراض والآلام ؟ ولماذا تعدو الطبيعة كل يوم وكل ساعة على المخلوقات بطرق لا تحصى من القسوة والشدة ؟ »

نقول صدق الله العظيم : « وكان الانسان اكثر شىء جدلاً » . ان الانسان لظلم كفار « ان الانسان خلق هلو عاً » « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه » ألا ترى ان هذا الانسان بعد ان تذوق حلاوة الادراك وتنسم نسمات الحياة بواسطة انواع المصائب

والآلام التي حاقت به نخلصت سر الانسانية فيه من خبث الطبيعة العمياء الكشيفة كايصره الذهب عمداً ليتجرد عما علق به من قذرا الارض قام يعترض على وجود الآلام والمصائب وهي مهذبه الاول ومرشده الذي عليه المعول . هذا الاستشكال لا يصح سوجه في سبيل نفي الصانع بل في سبيل السوآل عن حكمة خالق الكون على هذه الصورة . لانا لو رأينا خفاً منصوباً في بيضاء يمسك كل طائر يقع عليه يمكننا ان نزعّم ان ذلك العمل يعد اذى لا حكمة فيه ولكن لا يمكننا لمحض وجود ذلك الأذى فيه ان ندعي بأنه وجد بغير صانع لان ذلك من سخافة العقل بحيث لا يرضاء الحيوان . بل يجب وجوباً حتماً ان نحكم اولاً بوجود صانع نصبه وخصه لتلك الوظيفة ثم لنا الحق بعد ذلك ان نسأل عن حكمة ايجاده على تلك الصورة بدون رعونة ولا غشورة فاعمل له عذراً وانت تلوم .

ان (جيبيل) وانصاره بدل ان يحمّدوا الخالق على ان هداهم لادراك ما محتوشهم من النقص والحداج ووقفهم لان يروا ان هنالك كمالاً لا نقص معه وسعادة لا يألم من وصل اليها فيشرأبوا اليها بأرواحهم ويتحسّسوا على طريقها بكل وسائلهم نراهم بالعكس قد قطعوا على انفسهم طرائق النجاة وزجوا بها في تيه من اليأس ستسحقهم فيه طوارئه متحسرين مكبوتين رغم انفسهم . ولكن اذا كان هؤلاء قد ادركوا نقصهم وسئموا الوجود على هذه الصورة فعاشوا عيشة ضنكاً وماتوا قانطين فان هنالك رجالاً ادركوا النقص مثاهم ولكنهم رأوا خلفه الكمال الذي خافوا لأجله فسعوا اليه سعياً حثيثاً واخذوا يتقربون اليه شيئاً فشيئاً فهم يحيون حياة طيبة وسيموتون على درجة من الكمال يعرجون بها الى سبحات العرالم الاخرى في كون تنتظرهم فيه السعادة التامة والنعيم المقيم .

عجيب امر هذا الانسان يدرك النقص ويقف عنده ولا يعلم ان وراءه كمالاً محضاً يجب ان يسعى له ويضرب في بيد العزائم ليصل اليه . الم تر ان (جيبيل) هذا قد ادرك الجمال العرف والكمال المحض وهو حالة الملاء الأعلى فأراد ان يكون من اليائسين منه بدل المتقربين اليه ! سبحانك اللهم « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . » ان هؤلاء الذين يعترضون على مكونات الطبيعة قد استزلهم شيطان العناد والمجاهدة وهوى بهم الى اخس منزلة من منازل السخافة وهم لا يشعرون . على انى لا أدرى كيف يسوغون لانفسهم التظاهر بهذا الفكر النازل وهم يعلمون مثل غيرهم ان العلم

في تقدم مستمر وان الشيء الذي لا تظهر حكمته اليوم تبدو للناس في الغد . سل المتوحش عن حكمة هذه الجبال التي تناطح السحاب وتشوه وجه الارض في الظاهر تجده لا يتألك نفسه من ان يقر لك بانها عارية عن الحكمة وانه كان الاجدى والاجدر حذفها من على سطح الكرة . على ان هذا المسؤول الذي افق عن جهل وغباوة لو علم ان الجبال مخازن للأمطار وانها السبب الوحيد لدوام الانهار التي لو لم تكن لهلك الناس أجمعين ولم تكن الحياة على الارض ممكنة . قلنا لو علم ذلك الجاهل بهذه الحكمة لاستغفر الله على اعتراضه ولحجل من استعمال عقله القاصر في غير ما وضع له . هؤلاء المبددون ببعض أشياء الطبيعة يشبهون ذلك المتوحش في المثال المتقدم . نتراهم يدل تلمس الحكمة لما حسبوه تشويها يبادرون بالاعتراض على ما لم يحيطوا بعلمه . وهذا غاية الغباوة والجهالة . ولكن قاتل الله العناد فهو الذي اجبر هؤلاء على هذه السفطة المضحكة المبكية . أنلم تكفهم هذه المبدعات المدهشة المحيطة بهم من كل جانب فيأبزموا الادب في انتقادهم على أشياء معدودة لم يدركوا حكمتها للآن ؟

بينما يصيح هؤلاء المتهورون بالتنديد على ما لم يصلوا الى ادراكه ترى اساتذتهم بسجدون امام العظمة الالهية مقرين بهذا الابداع الباهر معترفين بأن كل ما نالوه من العلم لا يعد بجانب ما ستر عنهم الاكقطرة من بحر او شعاع من شمس . قال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتيه) في كتابه (فلسفة الاديان) : « ان العلماء هم اول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بانهم لم ينالوا منه الاجزأ محدوداً وان اكثرهم تواضعاً هم اكثرهم علماً . على ان كلهم يعترفون بأن ما حصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس الا عدماً بالنسبة لما يجهلون . فهم مستعدون لنقيح القوانين التي قرروها وتوسيع الفروض التي فرضوها وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحيحة الى ما لديهم منها . نعم انه يوجد من بين هذه المشاهدات ما يدهشهم ويشوش افكارهم (تأمل) كما نراه كل يوم ولكنك لو تلاحظ موقف العالم الحق امام هذه الظواهر الجديدة تره لا يشك في كونها تابعة لنواميس مجهولة ولكنها حقيقية وموجودة وتره لا يئأس من امكان عزوها الى تلك القوانين وزيادة مواد العلم بها . لان نجاحه السابق يضمن له نجاحه في المستقبل وتراد يتتبع اجاثه بدون تهور لانه لا يسرف الجبن الأدبي . »

بناء على هذا كله يجب ان تعد تلك النزعة من مباحر الماديين وعوراتهم فان الله اذا اراد ان يقضى على شرف رجل سلطه على ان يقول ما لا يعقل وبهرف بما لا يقبل . وعندى ان من يكلف نفسه بالاعتراض على بعض مكونات الكون بمحض عدم ادراكه لحكمتها لا يجوز ان يعد عاثلاً فضلاً عن اعتبار قوله . وقد كان يجب علينا ان لا نتكلف الرد على هؤلاء فى هذا الموضوع ولكننا خشينا ان يتهم الناس علماء الطبيعة بهذه السخائف فنكون قد جنينا عليهم وعلى العلم جناية كبرى .

دعنا من هذا كله وهلم بنا نأخذ المسالك على هؤلاء الماديين ونضيق الخناق عليهم بعد ان نحصرهم فى دائرة ضيقة لا يستطيعون عنها محيصاً فنقول : بأى حق ينكرون وجود الخالق وعلى اى دليل يعتمدون فى دعاويهم الطويلة العريضة ؟ أشهدوا خلق السموات والارض ورأوا باعينهم تلك النواميس الخالقة المبدعة وان المادة قديمة لا أول لها ؟ أم لديهم براهين وحجج يقبلها العقل السليم فى مثل هذا الموضوع الهائل ؟ لنسأل عن ذلك الاستاذ (ليتريه) نفسه لانه استاذ الفلاسفة الحسين قال حضرته : « لما كنا نجهل اصول الكائنات ومصائرهما فلا يليق بنا ان ننكر وجود شيء سابق عليهما او لاحق لهما كما لا يليق بنا ان نثبت ذلك . فالماذهب الحسى تحفظ كل التحفظ فى مسألة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق فى هذا الشأن . كما ان العلوم الفرعية التى هى منابع للمذهب الحسى يازمها ان تحفظ من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها . فنحن على الحياد التام بين النفى والاثبات . » هذا قول استاذ الفلاسفة الحسية ومنه يرى كل انسان ان ليس لدى القوم برهان على نفي الصانع وانهم ناس حجب اليهم عدم التداخل فى هذه المسألة بالمرة او بعبارة اصرح هم ناس يريدون فى انشاء الحكم على الاشياء كما يقول الدكتور (روينيه) فى كتابه « الفلاسفة الحسية » : « ان يبعدوا كل تصور او توهم وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة وان يمحذفوا من اقوالهم كل الفروض التى لا يمكن تحقيقها . »

نقول ان كان الامر كذلك فالخطب سهل جدا لان القوم اخذوا على انفسهم ان لا ينفوا شيئاً بدون برهان (محسوس) كما انهم لا يثبتونه الا كذلك ولكن ما قولك فى كونهم كذبوا على الله وعلى الناس وخالفوا قانونهم بدون خجل وكان اول من خالفه واضعه !

فقد كتب الاستاذ (ليترية) نفسه في مقدمة كتاب (المذهب المادى) للمسيو (لابلية) هذه الجملة : « ان الطبيعى يعلم ان للمادة وزن كما ان الفزبولوجى يعلم (ان المادة العصبية تفكر) بدون ان يدعي واحدهمهما معرفة كيف تزن المادة وكيف تفكر الاعصاب . » فانظر كيف خالف قانونه بنفسه وزعم ان الاعصاب هي التى تفكر ؟ هل لديه برهان محسوس على ان الاعصاب هي التى تفكر ؟ اما كان يجب عليه ان يقر بالعجز امام هذه المسألة وهي اعوص المسائل الفلسفية ان كان يريد ان يتبع قانون الفاسفة الحسية ؟ أتريد دليلاً آخر على نفهم الاشياء بدون برهان محسوس . اليك ذاك من قول واضع قانون الفلسفة الحسية نفسه ؟ قال (ليترية) أيضاً فى كتابه المسمى (كلمات من الفلسفة الحسية) : « يظهر لنا ان الاسباب التى اوجدت الكون هي ذاتية فيه غير متميزة عنه وهي التى نسميها نحن بالنواميس الطبيعية » انظر كيف ادعى بدون برهان محسوس ان الاسباب التى خلقت الكون هي نواميسه الطبيعية وانها فيه غير متميزة عنه !

على انا ندع الآن هذا كله ونرجوهم ان يحميونا على هذه الاسئلة المهمة التى تطرأ على كل فكر وتشغل كل قلب وهي : كيف ان المادة وهي عمياء صماء استطاعت ان تتكون هذا التكون البديع وتشكل هذا الوجود الضخم على تنوع صورده وكثائنه وتباين اشكاله وكيفياته ؟ انا نرى باعيننا ان المادة منقادة بواسطة قوانين ونواميس الى التشكل على حسب نسب وحدود معقولة فكيف نتصور ان شيئاً محروماً من نعمة الادراك والتعقل يتجه من نفسه الى غاية كمالية تدهش لها عقول البشر وتنبهر منها مدارك الفكر ؟ وكيف ان المادة المجردة من العقل والادراك تكون كائنات متممة بعقل وادراك كالانسان مثلاً ؟ وكيف ان المادة تحكم نفسها بنواميس حكيمة وهي لا تعرف معنى الحكمة ولا تحسبها ؟ وكيف يسود النظام والوئام بين مكوناتها وهي لا تعرف للنظام معنى ونحن نرى باعيننا رقياً محسوساً فى كائناتها : من جماد الى نبات الى حيوان الى انسان وكل هذه الممالك الاربع فى رقي مستمر الى غاية اسمى من ان تتصور ؟ كيف ان المادة العمياء الغير مدركة تتبع من نفسها خطة التدرج والترقي ؟ وكيف تخالق المادة هذه المبدعات فى عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات وتربها كل ما تحتاج اليه من حيل الحياة واسباب حفظ النوع واسباب البقاء والارتقاء حالة كون المادة لا تبنى ولا تدرك ؟ وكيف ان المادة فى عمايتها ومواتها

تتوصل الى خالق الحواس في عالمي الانسان والحيوان بهذه الدقة والمهارة لاجل التعرف بالاشياء المحيطة بهما على اتم نظام وابدع ترتيب . ولما ذاك كل هذه الحواس والاجهزة والاجزاء مركبة تركيباً يدهش العقل ويهر الفكر ولم يوجد منها ما هو مختل الوظيفة او عبء ثقيل على صاحبه ؟ لما ذاك لم تكن الطبيعة خالقاً مريعاً بدل هذا الابداع المحكم ؟ اذا القيت كل هذه الاسئلة على الماديين يشعرون في انفسهم مما يستولى على متنفسهم وانكسرهم لا يخرجون فيقولون : يحصل كل ذلك بواسطة الانتخاب الطبيعي ما هو يا ترى ناموس الانتخاب الطبيعي ؟ يقولون معناه ان الطبيعة مدفوعة للرفق الدائم ومنبعثة لان تنتخب الحيد الصالح وتترك الرديء الطالح وبذلك نهى تميل دائماً من كامل الى اكمل دل هذا هو الجواب ايها العقلاء . أياي ان تجيب على من يسألك : لماذا يسير الوابور ؟ بقولك . لانه مدفوع الى السير ومنبعث الى قطع الصحارى والخلوات هل يصح ان يكون هذا جواباً يصدر من عاقل يريد البحث عن الحقيقة ؟

ولكننا نسألهم : من هو الدافع للطبيعة الى الرقي والكمال ؟ وما هو الباعث لها على انتخاب الافضل والاصح من الكائنات ؟ الا تقولون معنا ان ذلك الباعث هو يد القدرة الالهية المحيطة بكل شيء المهيمنة على كل شيء والمتصرفة في كل شيء ؟ أليس هذا الاندفاع المشاهد من الطبيعة وتدرجها في سبيل التحسن والكمال يمد دليلاً مشاهداً محسوساً لا يقبل النقض على وجود الله متصرف في الاكوان يسيرها على حسب عامه وحكمته ؟ ناموس الانتخاب الطبيعي آخر ما جاء يابجاً اليه الماديون وهو كما رأيت اوضح ما يستدل به على وجود الخالق جل وعز . اذا امسكت واحداً منهم والجبته الى المناظرة ووصلته الى هذه النقطة واحفمته هذا الاتهام تراد تدامتقع لونه وزايله عفله وغاب عايه جهله وقال لك وهو مفحم مرتبك ما قاله الاستاذان (كرافت وستوف) : « لماذا لم تكتب هذه القوة الخائفة اسمها في السماء بسطور من نار . »

انظر الى ادب هؤلاء الفلاسفة وتوقد ذكائهم وديباع استنكالاتهم ! رب ان الهدى هداك فلا تحمنا ما لا طاقة لنا به من مثل هذه الرعونات السفلية ولكن ما شبه هؤلاء برجل رأى قصيراً مشيداً قد انتهى اليه الابداع في الصناعة فزعم انه تكون بنفسه بدون

ارادة مرید ولا اختیار مختار . فلما اعترض علیه فی ذاك وعد قوله مستهجنًا لم یخجل بل صاح صیاح الوقع المغفل قائلا : لو كان له صانع لكتب اسمه على سقفه باحرف من مصابیح . . . ! یخ یخ . اللهم ان كانت هذه نهاية الفلسفة فما ادنی تصور الانسان عن تصور الحيوان !

كان یجب علينا ان نقف فی هذه النقطة فقد تصمنا ظهر الاحاد ونصمنا عروته ولكن من باب التفکمة نأی على نظریاتهم فی اصول الانواع الارضية ثم تتبعها بنظریاتهم فی خلق السكون بدون صانع لیری المطلاع الى ای مطرح من مطارح السخافات وصات فروض هؤلاء الغلاة نکالا من الله .

اذا نظرت ساعة من الساعات الى الثلاث موالید الطیعية من جماد ونبات وحيوان وامررت فکرك فی کل مملكة من هذه الممالك مروراً علمياً ووقفت على بدائع صور اشخاصها واختلاف اشكال انواعها واجناسها ودقة ترکیب اجزاء آحادها وافرادها . وناقت نفسك بعد ذاك الى معرفة كيفية تكونها وتشكلها بواسطة الفواعل الطیعية فاسأل حضرات الماديين وهم ینبؤنک بالخبر یقین نعم انک ستضحک حتى تبدو نواجذک وربما صفقت بیدیک طرباً وما احسن العلم اذا كان بهذه الصورة المسایة . . . ! انهم سيقولون لك : ان التخالف الشدید الذي تراء بین انواع الكائنات من اول الحلیة البسیطة لغایة الانسان وهو قمة الابداع التکوینی (ارجو ان تستحضر فی فکرك کلاً قرأته او شاهدته من انواع النبات والحيوان) لیس بصعب التفسیر ولا یعوز کثیراً من التعب . لانه لم یحصل الابداع المکان والفواعل الطیعية التي تساعدت علیه . يقولون انظر الى الظرافة مثلاً فانک ان تعجبت من طول عنقها فما ذك الا لان ادهتها الاولى ولدتها فی محلات لم یکن فیها ما تنذی به من الاوراق الا على رؤوس الاشجار العالیة فالنجأت هذه الكائنات المسکينة لان شرئب باعناقها کما وخزها الجوع بلسنته نأخذت اعناقها تطول تدريجاً تدريجاً حتى وصات بحکم الضرورة (ما هی الضرورة یأتری) الى الدرجة نشاهدها الآن . وبناء على ذاك فالظرافة لم تعط تلك العنق الطویلة تصداً بل لانها احتاجت اليها لتقویم اود حیاتها . ثم يقولون لك وان عجبت من خاتمة اجنحة الطیور ورائک ما بها من نقش ورقش واندھشت من حسن الصناعة التي تكونت بها تلك الآلات

التي جعلتها ملكات الهواء فليس ذلك ايضا بصعب التأويل ونقول لك كما قلنا في الظرافة ان تلك الاجنحة لم تعط لها السكى تطير بها في الهواء بل انها طارت لكونها ملكات اجنحة . فان قلت وكيف اتتها هذه الاجنحة ؟ قالوا لك ان اوائل انواعها بدأوا يقفزون قفزاً الى الجهة العليا ثم لما استمروا عليه بضعة ملايين سنة نشأت لهم تلك الاجنحة فطاروا بها

اما ترى ايها القارئ الاليب ان هذه سخافات عقلية وخزعبلات فكرية تشبه هوسات شراب الحشيش في زوايا محلاتهم المظلمة ؟ فاذا كانت هذه النظرية السفلى ستفسر لنا اختلاف شكل الدودة عن شكل الفيل وشكل الدجاجة عن شكل الحصان فعلى العلم العفء ويجب على كل مشتغل بالعلم ان يحرق مكتبته ويذريها في الهواء ويجلس في غرفته ويترك العنان لخيالاته ويفسر ابداع هذا الوجود المدهش على حسب عقله القاصر وفكره الضئيل . كلا . « ما شهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً . »

في منتصف القرن التاسع عشر الذي نحن فيه ظهرت نظرية جديدة في اصول الانواع نأتى على ملخصها هنا من باب التفكهة ليتضح للناس اجمعين الى اى درك من السخانة يرمى الماديون بانفسهم نكالا من الله . فانك بينما ترى هؤلاء يتبجحون زوراً وبهتاناً بانهم يتعالون عن قبول الظنون والفروض التي لم يقيم عليها دليل محسوس ويتزهون عن اعتقاد الم تشهد به المشاعر خوفاً من الوقوع في مخائل الاغاليط ، اهم (والله غالب على امره) اذا ارادوا تعليل خلق الوجود بدون صانع يلتجئون الى التعسف الشائن والتفلسف المضحك الذي لا يرضاه لنفسه ذو مسكة من عقل . وما يخص تلك النظرية قولهم : ان البحر اصل كل الكائنات الارضية على اختلاف انواعها واجناسها . قالوا ان البحر قد عم سطح الكرة الارضية في عصر من العصور الحالية وبهذه الواسطة انتقلت المخلوقات التي فيه الى الارض وعاشت فيها . وعلى هذا فكل ما يشاهد على الارض من احقر خلية نباتية بسيطة الى اكمل حيوان وهو الانسان اصله البحر اى انهم كانوا حيوانات بحرية . قال الاستاذ « مايه » : « لا يوجد في الارض حيوان سواء كان مائياً على قدميه او طائراً بجناحيه او ساحباً على بطنه الا وفي البحر انواع مشابهة له او قريبة

منه . وان انتقال هذه المخلوقات من عنصر الماء الى عنصر الهواء ليس بممكن فقط بل مثبت بجملة امثلة ونحن هنا لا نريد ان نتكلم فقط على الحيوانات البرية البحرية او الثعابين والسلاحف وكلات الماء والاجناس المختلفة من نوع كلاب البحر ولا على الحيوانات العديدة ان تعيش في الماء والهواء على حد سواء او تارة في البحر وتارة في البر ولكننا سنتكلم على الحيوانات التي لا تستطيع ان تعيش الا في الهواء . وذلك انا نعلم ان الحيوانات البحرية تنقسم الى قسمين : حيوانات سابحة في بطن الماء وعائمة فيه تسرح وتضطاد . وحيوانات اخرى تمشي على بطنها في القاع ولا تنفصل عنه او تنفصل عنه نادراً ولا استعدادها للعوام . وبناء على هذا فمن الذي يستطيع ان يشك في ان طيورنا التي تسبح في الهواء لم تأت من نوع السمك الطيار ؟ او في ان حيواناتنا الارضية التي لا استعداد لها على الطيران ولم تقدر على العلو عن سطح الارض لم تأت من تلك الحيوانات البحرية ؟ . « وان اردت ان تقتنع » لا سمح الله « بصحة هذه النظرية وسألتهم عن ذلك قالوا لك : يكفيك ان تختبر اشكال الحيوانات واستعداداتها وامياها سواء كانت برية او بحرية ثم تقارنها ببعضها . فابداً بالطيور مثلاً ودقق في سائر انواعها وفي اختلافات ريشها ورقشها وامياها تجد انك لاتصادف نوعاً منها الا وفي البحر نظيره . قال الاستاذ « تليامد » : « يوجد في البحر اسمك تشبه اشكالها كل شكل من اشكال الحيوانات الارضية حتى العصافير . ويوجد في البحر نباتات وازهار وبعض اثمار فالانجرة (نوع من النباتات) والورد والقرنفل والشمام والعنب لها في البحر امثال . « وان اندهشت من هذا الامر جداً واظهرت استعدادك للحصول الانتقال من البحر الى البر لتباين الطبعين واختلاف الوسيطين . قالوا لك هون عليك واعلم ان هذا الانتقال لا يجافى العلوم الطبيعية في شيء . فان الهواء الذي يحيط بالكرة الارضية يحتوى على كثير من الجزيئات المائية وليس الماء الا هواء فيه جزيئات مائية اكبر حجماً واكثر رطوبة فهو اذن اقل من هذا السيل العلوى الذى الصقنا به اسم الهواء . اذن صار من السهل ان تتصور ان الحيوانات التي عاشت في الماء الذى هو « هواء مشبع بالماء » ان تعيش كذلك في الهواء الغير مشبع بالماء . ويضيفون الى ذلك بأن للضرورة نفسها اليد الطولى في هذا الانتقال . فقد يحتمل ان طاقة من هذه الحيوانات كانت في قاع بحيرة من البحيرات فأخذ ماء هذه البحيرة يحف شيئاً فشيئاً فوجدت

هذه الكائنات نفسها مجبرة على المعيشة في الجو الهوائي او يحتمل ان تكون قد حاولت القفز من تلك البحيرة الى البحر المجاور لها هرباً من حيوان مفترس فسقطت في غابة او دغل من القصب فهمت بالرجوع الى مستقرها الاول فاجهدت نفسها في القفز فلم تستطع ان تدركه ولكنها تحصلت بهذه المحاولة على خاصية الطيران . وفي هذه الحالة تشققت عواماتها من الجفاف الذي احدث بها لفقد الماء . ثم انها وجدت في تلك الغابة مثلاً ما يغذيها من المواد فلم يقض عليها بل استمرت حية ولكن الاناريب المحركة لعواماتها انفصلت عن بعضها واستطالت واكتست ريشاً او بعبارة اوضح تحولت جدرانها التي كانت متلاصقة الى حالة اخرى ثم اكدت اجسامها بريش دقيق ملون بالوانها الاصلية فكبر هذا الريش شيئاً فشيئاً حتى استحال الى اجنحة . اما الاجنحة الصغيرة التي كانت تحت بطونها والتي كانت تساعد على السباحة في البحر فقد استحالت الى اقدام سمحت لها بالمشي على الارض . وحصل ايضاً بعض تغير زيادة عما سبق في سائر اجسامها وبذلك ظهرت بهذا المظهر الذي نرى به الطيور قاطبة . اما من جهة الحيوانات الساحبة على بطونها والماشية على الارض فان تصور وفهم الكيفية التي انتقلت بها من البحر الى البر سهل جداً . فانك ترى بعينك ان الثعابين والسلاحف تستطيع المعيشة في كل من العنصرين على حد سواء . اما من جهة ذوات الاربع فانا لا نقول فقط ان في البحر ما يشابه سائر أنواعها جسمياً وتركيباً بل نقول ان منها ما يستطيع المعيشة في كلا العنصرين بغاية السهولة . اما ترى القردة البحرية وعظم الشبه الذي بينها وبين القردة البرية ؟ اما الاسد والحصان والبقر والخنزير والذئب والجمال والقط والكلب والمعزى والكبش فاما اشباه ونظائر في البحر . « هذا هو مبالغ قدرة الملاحدة على صوغ النظريات في اصل الانواع وفي تعديل هذا الابداع الذي برز الى الوجود من العدم . ياسبحان الله ان رجلاً ينكر الخالق الحكيم الذي لا يتصور العقل عدمه بحجة انه لم يره بعينه الضئيلتين ثم يحشم نفسه مثل هذه السفاسف لجدير بأن لا يعد من افراد النوع الانساني ولكي لا يظن ظان باننا نحاملنا عليهم وغلوينا في تشهير غلطاتهم يجب علينا ان نستشهد قادة العلم الفسيولوجي في نظرياتهم هذه ليعلم الناس ان الماديين ليسوا من العلم بالمكان الذي يتوهمهم فيه بعض الشرقيين . قال الاستاذ الطائر الصيت اشهر علماء الفسيولوجيا (كوثيه) : « ان بعض

الطبيعيين من أصحاب الافكار المادية قد رضوا بان يكونوا النصراء الاذلاء لنظرية (مايه) وذلك انهم لما رأوا ان كثرة استعمال عضو او اهماله يزيد او يقلل من قوته وحجمه توهموا ان العادات والمؤثرات الخارجية امكنها ان تغير تدريجاً اشكال الحيوانات لدرجة انها اوصلتهم على التعاقب الى ما نراه الآن في أنواعهم المختلفة . وهذه فكرة اكثر بعداً عن الحقيقة من كل الفكر التي دحضناها سابقاً . انهم يتوهمون ان الاجسام المركبة المتعضونة تشبه كتلة من العجين او الطفل وتقبل التشكل بين الاصابع . بمجرد ما ابتداء هؤلاء العلماء في الدخول في مفصلات نظرياتهم جلبوا على انفسهم السخرية والاستهزاء فان الذي يستطيع ان يتجاسر على القول بان السمكة بمحاولتها واجتهادها لان تعيش في الجفاف ترى اصدافها تتشقق وتستحيل الى ريش فتصير عصفورة او ان حيواناً من ذوات الاربع لشدة ميله للمرور من طريق ضيق ينقلب الى ثعبان . قلنا ان الذي يستطيع ان يتجاسر على هذا القول لا تكون نتيجة عمله هذا الا الدلالة على جهله المطبق بعلم التشريح . »

هذا حكم العلم على هذه النظرية ومع ذلك لو سلمت لهم فانها لا تثبت ان الخالق غير محتاج اليه لانه يقال : ومن الذي اوجد تلك الكائنات البحرية ؟
 كلا : ان مسألة وجود الخالق لا يصح ان تعد في صف المسائل المشكوك فيها والتي يتسع المجال فيها للاخذ والرد لانها اجلى البداهة العقلية والحسية معاً . ولكن يجب ان يعد نكرانها في باب الجنون من الكتب الطبية فان الجنون اشكال كثيرة واناوعه لا تكاد تحصى . ودليلنا المحسوس على ان مسألة نكران الصانع ليست الانزغات شياطين سفاكية تلعب بعقول بعض العلماء هو ما يتبع هذا النكران من مثل الهوسات العلمية التي نقلناها . فان اكبر مادي مهما كان غزير المادة قوي الحججة تراه عند الكلام على هذه المسألة ينسى اصول العلم المقررة وقواعده الثابتة ويضرب في ليلاء من الشطحات وظلمات من المدركات التافهة لا يقع في امثالها اطفال المدارس . فلو لم تكن المسألة من اصلها عارض يلم بالعقل لما كانت نتائجهما بهذه الدرجة من السخافة وخساسة الرأي . اذا اردت ان تحقق الخبر بالخبر فاصغ الى ماسألقيه عايك من نظرياتهم في كيفية خلق الكون بدون صانع لتتحقق ان اصل المسألة مس من الجن او نفحة من مالم يخولها شديدة :

ذهب بعض القدماء من الفلاسفة وشايعهم فيه بعض حرافيش العصر الحاضر الى ان هذا الابداع الفاض على جميع اجزاء هذا الكون البديع من عوالم الجماد والنبات والحيوان الى عالم الانسان (أندرى ما الانسان ؟) نشأ بالصدفة والاتفاق ولا أثر للاختيار ولا للارادة فيه . اذا سألت هؤلاء (من عبدة الصدفة) عن كيفية ذلك برز اليك « ديموكريت »^(١) ورفع عقيرته وقال : بدوران ذرات الاجسام حول نفسها في الفراغ في آماذ لا تدخل في حساب تكونت كل هذه الكائنات على اختلاف انواعها واشكالها وبرزت كما تراها على تباين اصنافها واجناسها ، فان وسعت من صدرك قليلا وحاصرته بالاسئلة وقذفت في وجوههم شبه الاشكالات التي تستدعيها هذه النظرية وقلت لهم : كيف ساغ لكم ان تتصوروا ان « الصدفة » العمياء المجردة عن العقل والاختيار والارادة والتبصر والحياة امكنها ان تنظم حركات السيارات المختلفة الدائرة حول مراكز ثابتة بغاية الدقة والاحكام ثم كيف امكنها ان تصور اجسام الحيوانات التي لا تنهى في العدد والاختلاف بهذا الابداع المدهش ثم كيف امكنها أخيراً ان تكون هذا الانسان الجامع لسائر قوى الكون على صغر حجمه الشامل لجميع عجائب الحلقة ونهاية الاختراع ؟ اجابوك والحيرة تكاد تذهب بحياتهم بان « الصدفة » تستطيع ان تنتج كل الممكنات على شرط كثرة دفعاتها هذا القول منهم لا يعد طيشاً وهدماً لاحكام العقل فقط بل يعد ايضاً هرباً فاضحاً عن موضوع البحث ان لم نقل غفلة منهم بقواعد العقل والاحساس وذلك انهم لم يتجاسروا على التثبت باذيال الصدفة « معبودهم المقدس » الا بعد ان فرضوا ان المادة تحركت على نفسها آماذاً مستطيلة ولم يستطع احدهم ان يفسر لنا مبدأ المادة ومبدأ تلك الحركة . فهل المادة والحركة قديمين لا اول لهما ؟ اذا قالوا نعم وساغ لعقولهم اللطيفة ان تعتقد بقدوم المادة الصماء وحركتها فعلام اذن جشموا أنفسهم انكار الخالق ؟ لماذا اذن ملؤا كتبهم خزعبلات وتعسفوا في الاحكام والمدركات حتى خرجوا عن دائرة الاجماع البشرى وصاروا امة وحدهم ؟ اذا كان منتهى فلسفتهم العالية الدقيقة ترمي الى اعتقاد قدم هذه المادة الغليظة وحركتها المستديمة فقد خسروا اعمارهم سدى واستوجبوا سحق العالمين اجمع (وسخط أنفسهم أيضاً) على غير طائل . لانهم

(١) واضع تلك النظرية . وهو فيلسوف يوناني كان عائشاً في القرن الرابع قبل الميلاد

بالطبع لم يتجشموا كل هذا التعب والنصب الا ليظهروا باعتقاد اسمى مما رسخ في ذهن العالم كله . اى اعتقاد يلاثم درجتهم في الحكمة ودقتهم في الفاسفة . ولكن جاء الامر بالعكس ووقعوا في اخس مما وقع فيه اولئك المتوحشون الذين يعبدون (الفتش) في وسط القارة السوداء المظلمة ، لانه شتان بين الذى يعتقد ان اصل الوجود حياة كلية غير مادية ابرزت العوالم على هذا النظام المعجز وبين من يقول ان اصل الوجود مادة صماء عمياء ميتة وحركة لا منظم لها ولا ضابط . ياخية مسمى هؤلاء الفلاسفة المساكين ويانكد طالعمهم . لقد اتوا بعد ان انشقت مرأرهم بحثاً وتنقيراً بنظرية يعلم الله انها لو لم تكس من الفاظهم الفصيحة بحجة بليغة لعدت من اوضح مميزات الجنون واصرح لدلائل الخبل والاضطراب الخي . اذا قيل لك ما هى النظرية التى لا تنطبق على عقل ولا حس ولا احساس . وما هى النظرية التى لها كل يوم من عمل الانسان ومشاهداته ادلة قاطعة على بطلانها وفسادها وما هى النظرية التى استند فيها اكبر شىء على لفظة لا معنى لها ولا حقيقة . وما هى النظرية التى تعد اكبر واجسم واغلظ مسبة للعقل الانسانى ؟ فقل له بدون احجام هى نظرية خلق الوجود بالصدفة !

سبحان ربى . هل غاب عن حضرات هؤلاء المتفلسفة انهم قد عموا عن شىء مهم جداً كان يجب ان يكون اقوى دعامة لنظريتهم تلك ؟ وذلك ان يقولوا لنا ما هى المادة فى ذاتها . اما يعلمون ان العلوم الطبيعية لم تزل واقفة موقف العجز عن ادراك كنهها ؟ اما وصل الى علم حضراتهم ان نظرية ديموكريت فى ان اصل المادة ذرات دقيقة لم يقبلها العلم الا من باب الفروض الظنية فقط ؟ أما طالع هؤلاء حيرة العلم والعلماء فى هذه المسألة العويصة ! اذا كانت المادة مجهولة الكنه والاصل للآن فكيف يحكم بقدمها وازليتها ما هذه المغالطات الفارغة وما هذه السفسطات المضحكة ؟

اذا سلم الخصم جدلاً وبطريقة فوق طاقة العقل بأن الصدفة هى التى ابدعت كل هذا الابداع فلماذا لم يشاهد بجانبه بعض تشوه فى بعض الكائنات بل بالعكس كلما ارتقى الانسان فى العلم والفكر ازداد اعجاباً فوق اعجاب وادرك اسراراً لاشياء لم يكن يعتقد ان لها حكمة . قال الاستاذ الشهير (هرشل) : « كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق ازلى لا حد لقدرته ولا نهاية . فالحيولوجيون

والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده . »

اما والعلم والعقل والاحساس انه ليستحيل على الانسان ان يتصور ان الصدفة مصدر كل هذا الابداع وانها منزهة عن العبث والجزاف حتى في أصغر مكوناتها . واذا ساغ للعقل ان ينسب للصدفة مثل هذه القدرة المدهشة والحكمة الغير متناهية فمن يلومني اذا قلت ان نظرية (ديموكريت) هذه ليست منسوبة لحكمته وعامه بل انه امسك القلم (صدفة) بازاء قرطاس طيره الريح اليه (صدفة) فسطر هذه النظرية (صدفة) وقرأها تلامذته (صدفة) واخذوا في نشرها وبذل الجهد في تأييدها (صدفة) وتجنبوها سخط الخاصة والعامه من جرائها (صدفة) نعم لانه ليست نظرية (ديموكريت) هذا باحكم صنعا ولا ادق تركيباً ولا ادعى للعجاب والاستغراب من عينه التي وصفها الاستاذ الشهير (اولير) وصفاً فسيولوجياً دقيقاً ثم عقب ذلك بقوله : « ومع ذلك ^(١) فان الملاحدة تجاسرون على القول بأن العين مثل الكون بأسره ليست الا نتيجة الصدفة الصرفة والاتفاق المجرد . ذلك لانهم لم يجدوا فيها شيئاً يستحق الالتفات ! (٢) ولم يروا أثراً للحكمة في تركيب العين ! ولذلك تراهم يتوهمون انه كان الاجدى والاجدر بهم ان يتأملوا من نقص خلقهم وخداج تكوينهم لانهم لا يستطيعون ان يبصروا شيئاً في الظلام ولا من خلال الحائط ولا يمكنهم ان يميزوا دقائق التراكيب من المراثيات البعيدة جداً مثل القمر والاجرام العلوية الاخرى . لهذا تراهم يصيحون بملء شدة ان العين لم تصنع تصداً ولكنها صنعت (اتفاقاً وصدفة) مثل قطعة العظمى التي نشاهد في الفلاة . ويدعون انه من الغباوة ان يدعي الانسان اننا اعطينا العين لننظر بها بل الاجدر ان يقال اننا لما اعطينا هذا العضو بالصدفة استفدنا منه على قدر ما سمحت به طبيعته وقوته . فمن العبث ان نكلف أنفسنا الجدل مع هؤلاء القوم فانهم شديداً الجلود على فكرهم هذا ومنكرون لاكثر الحقائق استحقاقاً للاحترام والتجاة . »

(١) هذا جزء من خطاب ارسله الاستاذ الطبيعي (اولير) الى احدى البرنسمات العالمات يذكر لها فيه دقة تركيب العين (٢) هذه الجملة وما بعدها تهكم صريح على الملاحدة .

ماذا تريد ايها القارئ من قوم لا ينجحون من القول بأن هذه العين الجميلة ذات الصنع المدهش التي لم تتكون طبقاتها المختلفة ولم تناسب اخلاطها وسوائلها المتباينة ولم تتركب اجزاؤها المتناهية في الرقة الا لترسم المرأى المختلفة في الاوساط النورية المختلفة ؟ لا شك ان هؤلاء مصابون في عقولهم . ولكن لنقل نحن عن وصف مصابهم هذا ولنستشهد عليهم الفيلسوف الشهير فولتير فهو أدري بحال ابناء جلدته . فقد قال عنهم في قاموسه الفلسفي المشهور ما يأتي : « ألا ان الادعاء بأن العين لم تخلق لنا لتنظر بها ولا الاذن لنسمع بها ولا المعدة لتضم الغذاء بها يعد افطع الغباوات العقلية واكشف العمائات الجنونية التي تلم بالعقل الانساني . »

نقول : لقد احسن فولتير في وصفهم بهذا الوصف السافل فانه احسن ما ينطبق على حالهم كما اصاب الاستاذ (اولير) في عدم تكليف نفسه الخوض في جدلهم لانهم احط من ان يقفوا في مصاف المجادلين (ولو في مسألة الحادهم) ولان كل امثال هذه المقولات من السخافة والحطة بحيث يجب ان يخطاها النظر كما يخطى القذر والوضر . ولكن في النفس كلمة نود ان نقولها لهؤلاء المتطرفين :

اذا كان كل هذا الوجود المدهش والابداع الذي حير الفكر وبهر البصائر والابصار نتيجة اعمال الصدفة فأى عمل بعد هذا تستطيع ان تنسبه (للحكمة) ؟ انا شاهد باعيننا ان أقل الناس عقلاً وأكثرهم تشبهاً بالحيل وفي مقدمتهم القائلون (بنظرية الصدفة) لو قلت له ان هذا القلم يرى بالصدفة شن عليك غارة شعواء وربما اتهمك بالجنون وله الحق في ذلك لان الحس ذاته يشهد بفساد هذا الزعم وبطلانه ولكن من العجيب ان ذلك المتطرف الذي انفعل واتهم مخاطبه بالخلب العقلي لنسبته انبراء القلم للصدفة نراه اذا تكلم على هذا الوجود وابداعه وعجائبه ومدحشاته وعوالمه لا ينجبل ولا يفعل من نسبته (للصدفة والاتفاق) مع ان الفارق بين انبراء القلم وخلق الكون لا يقدر بوجه من الوجوه . لم هذا ياترى ؟ لا شك لحسهم افكارهم في دائرة ضيقة وتقييدهم تصورهم في اخرج غل من اغلال القصور . انهم لم يستطيعوا ان يتصوروا ان القلم ينبرى بنفسه بدون البارى ذي الآلة والارادة لكونهم علموا ذلك بالخبرة وعرفوه بحاسة النظر ولكنهم انكروا صانع الكون (تقدر عن المشاكلة) ونسبوا الوجود كله لفعل الصدفة لكونهم

لم يروه باعينهم الضئيلة ولم يعهدوا مثالا لخالق الكون . اذن فما أضيق مجال هذا الفكر وما اخرج ميدان هذا التصور وما اقصر باع هذه العزيمة ! هؤلاء بدل ان يسموا في معرفة الخالق الحق ويهتموا في التقرب الى ادراكه من مظان الخطوة منه — وابواب العلوم والمدركات غير محصورة — تراهم يسدون السبيل في وجوه انفسهم ويطلقون يخبطون خبط العشواء في فروض وظنون ليست من حقيقة الواقع في شيء . ويصرفون اعمارهم فيما يفسد فطرهم ويصدىء من مرآة انسانيتهم .

ما هي الصدفة ؟؟؟ الصدفة كلمة اصطلاح عاينها الناس للدلالة على كل ما يصدر بدون قصد ولا ارادة وقابل من نتائجها ما يعتد به حتى انه قد يمر على الانسان عشرات من السنين بدون ان يصادف (صدفة لطيفة) تستحق اعجاب العقل بها وان صادفها كثر تعجبه منها واخذ يحدث بها اخوانه على سبيل الفكاهة لشذوذها عن سنن الوجود وقوانين الحياة المعروفة ولندرتها وعدم الاعتياد على حصول امثالها . اذن أليس من العجيب ان لفظة يكون هذا مضمونها وتلك حالة نتيجتها من الشذوذ والتدور ينسب لها خلق هذا الكون كله بهذا الابداع والاحكام المدهشين ؟؟؟ ما هي الصدفة ؟ الصدفة كلمة اخترعها (الانسان) واطلقها على حدوث اشياء تافهة في (عالمه المحدود) وقد يمر على احدنا ربح من الزمن ليس بقصير لا تأتى هذه (اللفظة الحقيرة) في كلامه في جملة معقولة . اذن أليس من العجيب الغريب ان يجترأ الانسان (ذو العلم المحدود) وينسب خلق هذا الوجود الذي لا يتصور العقل له حداً الى قدرة لفظة اصطلاح عليها للزومها له في تعليل بعض شواذ حوادثه اليومية الحقيرة !

ان علماء الاديان ينددون ببعض أصحاب الاديان تنديداً مرأاً لكونهم جعلوا الكرة الارضية مركز الكون كله ولكونهم زعموا ان الانسان هو المنفرد بالوجود فيه . فما بال حضراتهم وقعوا في شر مما يعيرون منه سواهم ؟ فانهم لم يجعلوا الكرة الارضية مركزاً للوجود فقط بل جعلوا لفظة (فارغة) من لفيظات سكان هذه الكرة (الحقيرة) سبب الخلق والايجاد وعللوا بها كل هذا الاختراع والابداع مما لا يدخل تحت سلطان الفكر ولا تنتهي اليه هبرزيات القوى المدركة السامية جداً .

ان الماديين ينصحون غيرهم بعدم حصر أفكارهم في حيز حرج ضيق ويقولون

كما يقول أكبر علماء القرن في علم الطبيعة وهو الاستاذ (هكسلي) : « ان ممكنات الطبيعة غير محصورة » ويدعون ان في بعض الكواكب اناساً لهم شؤون ومدرجات غير شؤوننا ومدرجاتنا . فما بالهم يحصرون افكارهم في دوائر اضيق من سم الخياط ؟ سلهم قائلاً : أليس من الجائز ان اولئك الاقوام سكان الكواكب موجودون في وسط ليس فيه حوادث تشذ عن القواعد مطلقاً « لان ممكنات الطبيعة غير محصورة » وبذلك لا يكونون قد وضعوا في قواميسهم لنظرة « صدمة » فيما اذن يعال ملحدوهم خلق الكون ؟ اي ملحد لا ينكمش امام هذا السؤال ؟ واي عابد من عباد الوهم لا يكسر صنم معبوده الصدفة ويذريه في ذيول السافيات ؟ بل أي قصير النظر لا يقف هنا وقفة الحيرة ويبطأ من تلك الكبرياء الكاذبة التي هوت به رغم انه الى أسفل سافلين ؟

دونك نظرية أخرى من نظريات الماديين ليست بأقل استحراقاً للسخرية والاستخفاف من سابقتها : زعم احد فلاسفة الالمانيين وشايعه غيره ان الصانع لم يوجد في الماضي ولكنه وجد الآن (كبرت كلمة تخرج من افواههم) أي انه (تعالى علواً كبيراً) كون كل هذه الكائنات على ماهي عليه من ابداع وجمال ونظام وهو غير عالم (معاذ الله) ماذا يعمل وغير مدرك وجود ذاته الى ان توصل الى خلق الانسان وهو أفضل الكائنات واشرفها فأدرك وجود نفسه به وصار لها معبودا .

نقول ان في هذه النظرية من قصر النظر وحصر الفكر مالا يخفى على بصير . فانه لا دليل على ان الانسان هو أول كائن مدرك في هذا الوجود كله . فربما يوجد عوالم أخرى متمتعة بخاصية الادراك والعلم خلقت قبله بدشليونات من السنين لا تدخل تحت حصر . ان كان هذا ممكناً فقد اتضح ان أساس نظريته فاسد مختل لا يصح البناء عليه . لا جرم ان قائل هذه النظرية قد تدنى الى اخس دركات القصور الفكري وهبط الى حضيض من الوهم لا يغفر لرجل يدعي التنور في العلم . لان هذه النظرية تستدعي من الاشكالات مالا يستطيع معها قائلها ان يرفع رأساً او يحير جواباً .

ليت شعري ما معنى قوله ان الصانع كون كل هذه المبدعات وهو غير عالم ماذا يصنع ؟ ما هذه السفسطة ؟ ما ذا يقول حضرته لو قلنا له كما يقول العلامة الطائر الصيت (نيوتن) الفلكي الشهير : « هل يعقل ان هذه العين تتكون بدون العلم بنظريات الضوء

وهل يمكن ان تكون هذه الآذان بدون العلم بنظريات الصوت . . . ؟ » ونقول له نحن : هل يمكن ان تعطى لهذه الاعضاء الحيوانية الدقيقة هذه الوظائف المتناسبة بدون الامام التام بعلم الفسيولوجيا . . . ؟ وهل يتصور العقل ان تمتع هذه النباتات بشرائط حياتها وتكاثرها وبقائها بدون العلم بحالة الاوساط التي تعيش فيها معرفة كلية ؟ بل هل يتصور ان يهب الادراك والحياة من لا ادراك له ولا حياة . . . ؟

يقول الملاحدة ان المكون الحقيقي هو (الوسط المناسب) أى المكان المستأهل للتكوين والايجاد ففى توفر الوسط المناسب بطلت الحاجة الى غيره . نقول من الذي كون ذلك الوسط المناسب الذي صالح لتكوين كل هذه المبدعات التي تقصر عزائم التصورات عن ادراكها ؟ ومن هو الذى متع ذلك الوسط بكل ما يحتاج اليه من النواميس والقواعد ؟ ومن هو الذى وفق بين الشرائط الضرورية وناسب بين أفاعيلها لكي تكون مكوناتها منتظمة غير مشوهة ؟ بل من هو الذى اعد تلك الاوساط وهياها وخالف بينها لتصلح لايجاد الكائنات المختلفة مع علمك بأن الكرة الارضية فى مبدأ أمرها كانت كتلة ملتهبة متجانسة فى سائر جهاتها ؟ هل يعقل ان كل هذه البدائع التكوينية والصنائع المنتاهية فى الجمال والدقة تكون نتيجة اوساط ارضية لا فاعل فيها غير الصدفة العمياء . ما احق اتباع هذا المذهب بان يجلسوا فى صحراء حتى يجوعوا فاذا طلبوا الغذاء قيل لهم انتظروا حتى يستعد الوسط من نفسه لانبثاق القمح لكم وحتى يستعد الوسط لتكوين احجار تصنعون منها طاحوناً وحتى يستعد الوسط لتجهيز العجين والنار فيأتيكم غذاؤكم من طريق الصدفة بفضل (الوسط المناسب) لاجل ان تقيموا على صحة نظريتكم برهاناً مفحماً ! نخرج ما صنع هذا الوسط المناسب ! هؤلاء هم الذين يقولون ان الاعضاء لم توهب لنا قصداً وللاغراض التي نستعملها لها بمعنى ان العين لم تعط لنا لتنظر بها ولا الاذن لتسمع بها ولا اللسان لتذوق به الخ ولكن الوسط المناسب وهبنا كل هذا الاعضاء اعتباطاً بدون قصد فاستفدنا منها فى صالح انفسنا ليس الا ! هذا القول يشبه قول رجل مغفل ان الانسان لم يتعمد صنع المحراث ليحرث به الارض ولكنه حرثها لكونه وجد محراثاً وقد مر قول الفيلسوف (فولتير) والاستاذ (اولير) فى استهجان العلم والعلماء لهذه السفسطة المضحكة ولا لزوم للترديد .

اننا لفي غاية العجب من تناقض هؤلاء في اصولهم . وذلك انهم من جهة من اكبر المؤمنين بنظرية العلامة (لامارك) القائل بأن الوظيفة تخلق العضو ولكنهم من جهة أخرى تراهم كثيراً ما يتطرفون في التعبير ويأتون بما يؤخذ منه صريحاً ان العضو هو الذي يخلق الوظيفة أليس قولهم السابق يدل على ذلك ؟ فسبحان المنزه عن التناقض .

ومع كل ما تقدم فان قولهم ان الضرورة تخلق العضو عاط محض بل هو قول خرافي . ما هي الضرورة ؟ كل يعلم ان الضرورة هي الحاجة والحاجة في نفسها لا تسمع ولا ترى ولا تهب .

الضرورة تبعث للطلب سواء بلسان الحال او بلسان المقال ولكنها لا تستطيع ان تعطي شيئاً وهل بعد الحس دليل . قل هؤلاء اذا فرض وحدثت حيوان من الحيوانات حاجة الى كبر حجم عضو من اعضائه او طول ظفر من اظفاره فقد وجدت (الضرورة) ولكن ابن الواهب والمعطي . ما الذي يعرف حاجة ذلك الحيوان الى ذلك العضو فيه به حاجته الضرورية منه ؟ اذن فقد وجب ان يوجد مهيمن على الموجودات معتن بها ليزيل بقدرته وواسع رحمته (ضرورات) مخلوقاته والا فالضرورة وحدها غير كافية . بل الضرورة وحدها ليست الا الالم بعينه . قال الاستاذ الطائر الصيت (نيوتن) : « من المستحيل تصور ان الضرورة هي المؤثرة وحدها على هذا الكون لان هذا التخالف في الكائنات لا يمكن ان يتأتى من ضرورة عمياء هي في كل زمان ومكان . والحلاصة ان الكون في تناسق اجزائه وتناسبها مع تغيرات الازمنة والامكنة لا يمكن ان يصدر الا من ذات اولية لها علم وارادة . »

وهناك نظرية أخرى تنسب لاحد الفلاسفة الفرنسيين . قال : ان العالم لاله له (معاذ الله) ولكنه مخلوق على مقتضى قاعدة ثابتة مرسومة له من القدم ووصف تلك القاعدة بكل اوصاف الجلال والكمال وقال في سعة اختصاصها كل ما يمكن ان يقال . اما نحن فلا ننكر ان الوجود خلق على مقتضى قاعدة ثابتة ازلية موافقة لعلم الله القديم ولكننا لا نطمس نور انكارنا بظلمات القصور فلا نقول ان تلك القاعدة البالغة حد النهاية في الاحكام وجدت بنفسها بدون خالق او انها خلقت الكون بدون وجود من يطبقها على العمل . لانا اذا قلنا ذلك اقام ضميرنا علينا الحجة وقال اذن فالقاعدة التي

بنى على مقتضاها هرم الجزيرة لم يضعها مهندس ماهر وان تلك القاعدة هي التي بنت الهرم بدون احتياج لقوى العملة .

اذا اقام علينا ضميرنا هذا الحجة لم نجد ولا شك ما نفعه به بوجه من الوجودوتها في متانة الحيرة والدهشة . فاما ان نصر (والعاذ بالله) على القول بعدم احتياج تلك القاعدة الى فكر المهندس وقوى العملة وهو مما يابأ المجانين فضلاً عن العقلاء واما ان نطيع داعي العلم والعقل والحس فنعترف باحتياج تلك القاعدة القديمة الازلية للمنفذ المرید المختار لنزج ضميرنا من شر ماينتابه من الوقوف مع هذه النظرية الجنونية .

هذه هي أهم نظريات الملاحظة وقد رأيت انها كما قلنا وقاله اخوانهم في العلم والجنسية افكار مالىخولية لا تقبل امتحاناً ولا يستطيع أحد ان يقيم عليها برهاناً فما هي الا سفسطات دعت اليها دواعى الملاجة والعناد



﴿ الاحاد امام العلم ﴾

كان الذى عملناه في فصولنا المتقدمة من سرد شبه الملحدین وعرض استشكالاتهم الواهية الواهنة يكفى لبيان قصورهم وبنه على حقيقة مراکزهم في العالم العلمى ويهوى بهم عن الاوج الوهمي الذي رفعهم اليه بعض الغفل من الشرقيين الذين يظنونهم هالميم العلم وحماة المعارف العصرية واقطاب الفلسفة العملية الحسية الح ولكننا رأينا ان نعقد هنا فصلاً خاصاً في الاحاد امام العلم لنثبت فيه بالبراهين المحسوسة ان العلم اسمى من ان يتدنى الى تكران اوضح البداهة الوجودية واكبر من ان يشايع أصحاب النزغات الجنونية الذين يريدون ان يتخذوه آلة لاطفاء نور العقيدة من أفئدة البشر .

ما هو العلم ؟

كان العلم في سالف العصور يطلق على خلط من فروض ظنية وتجارب ناقصة وروايات خرافية وعلى كل ما لفظه كبير من كبراء ذلك الزمان سواء كان في المدركات العقلية او المحسوسات التجريبية . ولو تصفحت اليوم اوثق كتاب من كتب الاقدمين

ولكن مثل كتب ارسطو مثلاً لا تكاد ترى حقيقة خالصة من شوب الوهم ومنزهة عن الظنون والمدرجات الغريبة . لهذا السبب كانت الجامعة العلمية بين الامم مفقودة بالمرة لاختلاف العلم الواحد في الامتين المتباينتين تمام الاختلاف . لان هذه ادخلت اليه من اهواء كهنتها ونزغات فلاسفتها ما يلائم طبيعتها ويشايح عقيدتها وتلك فعلت مثل ذلك بالنسبة لما هي فيه من تلك الاحوال فتعاكس الامران وهما في الاصل شيء واحد والخلاصة كان العلم في سالف العصر اسير الاهواء النفسانية والمعتقدات الخرافية والعوائد البلدية لا مسيطراً عليها كما هو الواجب ان يكون . اما العلم في اصطلاح العصر الحاضر فهو مجموع المدرجات الانسانية المثبتة بالمشاعر والتجارب المتكررة المدعومة والمستقلة تمام الاستقلال عن المعتقدات والعوائد والاهواء والفروض والظنون ولذلك ترى ما يسمى في بلدة علماً كما هو في بلدة مثلاً هو بعينه ذلك العلم في بلدة مسامته لها من الكرة وهكذا في سائر فروع العلم الداخلة تحت سيطرة الامتحان والاختبار . هذا هو العلم الصحيح الواجب التسليم به والحاصل على أقوى الادلة على صحته وحقيقته الا وهو طاعته لامتحان المشاعر . الا انه لم يزل هناك حاجة الى فرض الفروض والتخمينات لان سائر المدرجات والمحسوسات لا يمكن الحكم عليها والانتفاع بها في عالم الصناعة على اختلاف أنواعها الا اذا ضمت طوائفها المتشابهة الى وشيجة تضمها وتربطها ليتمكن تعرف سير الناموس السائد عليها ليستطاع التساطع عليها من قبله وجهته . هذا هو وجه الحاجة الى زعم ان هذه الظواهر مثلاً سائد عليها الناموس الفلاني وتلك ناموسها هو الناموس الفلاني وهكذا وكلما كان الفرض من تلك الفروض شاملاً لاكثر علاقات تلك المشاهدات ومفسراً لحل خواصها ووظائفها كان اقرب الى الحقيقة من سواه فيعتنقه العلماء موقتاً منتظرين ما يهديهم اليه العلم في المستقبل فهم اذن مستعدون تمام الاستعداد وبقلب رحب لتغيير وتحوير كل فرض فرضوه متى اتضح لهم ان هناك ما يظهر انه اقرب منه الى حقيقة الواقع واكثر منه تفسيراً لظواهر تلك المشاهدات التي يريدون ايجاد ناموسها . وقد مر بك قول الفيلسوف الشهير (اجوست سبانيه) في كتابه فلسفة الدين ما يأتي : « ان العلماء هم أول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بانهم لم ينالوا من العلم الاجزاء محدوداً ، واكثرهم علماً هم اكثرهم تواضعاً . وكلهم يعترفون بأن ما حصلوه للآن

من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء من الطبيعة ليس الا عدماً بالنسبة لما يجهلونه . فهم (تأمل) مستعدون لتتقيد القوانين التي قرروها وتوسع الفروض التي فرضوها وضم كل ما يشاهدونه من المشاهدات الصحيحة الى ما كان لديهم منها . الخ »

وقال الاستاذ الطائر الصيت (كاميل فلامريون) : « ما هي النظرية في اصطلاح علم الفلك والطبيعة والكيمياء ؟ اننا نشاهد المشاهدات أولاً حتى اذا تكون لدينا منها مجموع كاف نبحث لان نضم بعضه الى بعض بناموس يشمها جميعاً . ولكن هل نرى ذلك الناموس باعيننا ؟ لا . انما نتخرصه تخرصاً بامتحان المشاهدات وربما جاء الاسم الذي نعطيه لذلك الناموس اقل صلاحية له من غيره . هذه النظرية التي بواسطتها يتوق عقلنا الطموح الى تفسير الاشياء ليس هو في الحقيقة الا فرضاً لا قدر له ولا قيمة الا على قدر ما يفسر لنا من مسانير المراثيات المحسوسة . فيبقى هذا الناموس في مصاف الفروض الواهية الواهنة التي يمكن ان تذروها الرياح ولا يرتفع الى مقام الفروض العلمية الا في اليوم الذي يثبت فيه بالامتحان والا قذف به الى حضيض التصورات الوهمية . » اذا تقرر لديك هذا اتضح لك ان لا وظيفة للعلم العصري الا البحث عن ظواهر الاشياء وقشورها الداخلة تحت احكام الخواص وامتحان المشاعر وان نظرياته هي نظريات وقتية مستعدة للتحويل والتغيير متى آن اوان ذلك عند اتساع نطاق العلوم واكتشاف ارجديد له علاقة بتلك النظرية كما هو حاصل يومياً . فاذا كانت هذه هي وظيفة العلم الجديد فيكون من الافيات عليه اتخاذه آلة لنفي الصانع والادعاء بانه يدعو الى نبذ الاديان والعقائد ويحمل الى التكذيب بكل العوالم التي هي وراء هذه المادة .

يقول قائل ومن هم اذن اولئك الرجال الذين يدوي صدا صوتهم من آن لآخر في بعض بقاع الكرة الارضية بدعاو طويئة عريضة مثل نكران الصانع والروح والخلود باسم العلوم العصرية التي يزعمون انهم قادتها واركانها وحملتها اعلامها ؟ نقول اننا مهما قلنا في سبيل اهباط مقام اولئك الطغاة الأثمة وتسفيه احلامهم والبرهنة على انهم ليسوا من العلماء الموثوق بهم فلن نسلم من ان يعزونا بعض الناس الى شدة التحامل عليهم مهما كانت الثقة بنا في امثال هذه المواضيع المهمة لذلك لا نرى بداً من استشهاد اساتذة العلم في اولئك الدعاة الغلاة ليكون الكلام ابلغ في الحجة واوقع في النفس . قال الاستاذ

(كاميل فلامريون) المتقدم ذكره : « لقدعجز الاساتذة عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر ليتمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وادراك سر اصول الاتياء . اما التلامذة فانهم يدعون انهم فاقوا معلمهم فقاموا يحرفون نظرياتهم . التي يزعمون زوراً انهم حماها ومؤيدوها . »

هذه شهادة العلماء في الماديين ولو كان فيهم عالم يوثق بعلمه او فاضل له مقام في عشيرته او ذو حيثة له احترام في شعبه لما قام (كاميل فلامريون) وهو ذلك الرجل العاقل يعلن على رؤوس الاشهاد ان هؤلاء الدعاة الغلاة هم تلامذة ليسوا باساتذة وانهم من الخيانة وعدم الامانة بحيث صرفوا نظريات معلمهم وشوهوا من وجهها . وقال الاستاذ الموما اليه : « ان بعض الذين يدرسون العلوم ويشخصونها او الذين يزعمون انهم سراحها يعلمون مذاهب باطلة وخيمة . وترى العقول العطشى والمتذبذبة مع أخذها من كتبهم معلوماتها لاحتياجها اليها تشرب معها سمّاً زعافاً يهدم في افئدتها جزءاً من فضائل المعرفة . بهذا اصبح من الضروري ايقاف هذه السلسلة الفظيعة التي تهددنا بشيوعها شيئاً فشيئاً . لهذا نرى من اللازم اللازب مناقشة هذه المذاهب الحساب والبرهنة (تأمل) على انها ليست من العلم في شيء كما يدعيه بعض الناس وعلى انها ثمرة غليظة من ثمرات الافكار الجامدة التي برجوعها على نفسها دائماً تتوهم انها مؤسسة على العلم بينما هي لم تقبل من تلك الشمس المضيئة (شمس العلم) الاشعاعاً ضئيلاً حاسداً عن سيره الطبيعي . »

نعم الاحاد احقر من ان ينتسب الى العلم او العقل او ان يسمى مذهباً انسانياً واتل واصغر من ان يهتم بشأنه . بل الاحاد وهم يلم ببعض العقول المستعدة لهمزات شياطين الوساوس .

ان الاحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الانسان من كل احساس فيه وليس المنكر لها باقل احساساً بها من سواه بل ربما كان تظاهره بالجحود والنكران حجة ناطقة على كونه أشد الناس تأثراً بها الا انه ضل الطريق واخطأ المهييع نقذفت به حيرته الى متاهة من الشطحات هي ظلمات بعضها فوق بعض فلم ير المخلص منها الا فرض الفروض وابتكار انواع السفسطات التي لو خلاها يوماً وحكم فيها فطرته لضرب بها عرض الحائط ولعلم

ان احساسه في واد وما تخيله منها في واد آخر . وانا لو سئلنا يوماً عن هو الكذب الناس على نفسه اقلنا بدون تردد : هو الرجل الذي يزعم انه ما احد

ان اردت ان تعرف حقيقة مركز الملحد من العلم وكنه مقامه من الحكمة فاسمع : المؤمن والملحد بالنسبة للوجود يتحدان في الاقرار بأن كل ما فيه تابع لقوانين محكمة ونواميس ثابتة ذات اغراض حكيمة ولم يوجد لهذا الحين غبي يدعي ان الكائنات العلوية والسفلية غير تابعة لقوانين ثابتة محكمة بل لا يتنظر ان يوجد ذلك الغبي في عصر من العصور المستقبل لان كل العلوم الطبيعية والرياضية مبنية على تلك النواميس ولولاها لما وجد علم البتة . فالفارق الوحيد بين المؤمن والملحد هو ان اثنائي يقصر نظره على التدبر في افاعيل تلك النواميس ويضرب الصنح عن التأمل فيها نفسها فيقول مثلاً : ان الكواكب متماسكة بقانون التجاذب (وهو لم يره) والنباتات تتغذى بنواميس الامتصاص وهكذا وكما ارتقى في العلم ووقف على بعض الاسرار الطبيعية التي لا يستطيع تعليمها اختراع لها ناموساً خاصاً بها فنواميسه اذن لا تنتهي . واما المؤمن فلم يخطئه التدبر في افاعيل تلك النواميس ولكنه لم يرد ان يقصر نظره عليها بل دقق النظر في مجموعها فرأى انها ليست مستقلة في ذاتها ولكنها مظاهر مختلفة لقوة واحدة هي المهيمنة على هذا الوجود كله . ولم يعتقد هذا بدون برهان محسوس بل قال : انها لو لم تكن كذلك لما كان هذا الترتيب البديع في الكائنات العلوية والسفلية ولما كان هذا التضامن المتبادل بين العوالم الكونية . قال انظر الى هذا النبات النامي وتأمله على طريقة علماء المادة تجد انه مسود بجملة نواميس مختلفة فلو كانت كل هذه النواميس مستقلة وغير متحدة فيما بينها لاختل حال النبات ولخرج على غير مقتضى الحكمة . اذن وجب ان نعتقد ان كل هذه النواميس متحدة ليس فيما بينها فقط بل ومع النواميس الخارجية أيضاً ولولا ذلك لعدت عليها نواميس الحرارة الشمسية والارضية والرطوبات الجوية وغيرها . اذن لزمك الاقرار والحزم باتحاد كل نواميس الكرة الارضية على اختلاف افاعيلها ووظائفها . ولو صعدت قليلاً الى مستوى ارفع من هذا لحكمت حكماً جازماً بان نواميس الكرة الارضية يجب ان تكون متحدة مع نواميس الوجود كله لان الارض ليست الا كوكباً حقيراً من هذه الاجرام الحقيرة بل هي منها مادة واصلاً وتابعة

لحركاتها واحوالها . اذن ننو اميس الوجود كله متحدة فيما بينها ولا معنى لاتحادها الا كونها مظاهر مختلفة لقوة واحدة عامة مهيمنة على هذا الوجود بأسره وحافضة له من التلاشى والعدم . هذا النظر مما لا يكاد يتردد فيه عاقل ولا مجنون ولكن لما كانت الحقائق المعقولة لا تذاق لدى كل الناس الا اذا اقيم عاينها مثال محسوس نخذ نفسك ذلك المثال وتأمل في ذلك حين اعتنائك باداء عمل مخصوص . ماذا ترى ؟ ترى ان قوى يدك وقوى عينيك وقوى رجلك وقوى جميع عضلاتك وخلايا مخك وجسمك تشتغل وتكد كلها لاتمام ذلك العمل على الطريقة المطلوبة بغاية الاتحاد والوئام لا تحس بان قوى يدك مثلاً تعاكس قوى عينيك ولا تشعر بان بين اعضاءك العاملة اقل مضادة فيما بينها مما يحدوك الى الجزم بان قوى تلك الاعضاء المختلفة ليست بمستقلة بل هي مظاهر مختلفة لقوة رئيسية فيك هي قوتك الحيوية العامة .

اذا تقرر هذا ولا سبيل الى المكابرة فيه لانه مشاهد محسوس فلتقف هنا قايلاً ولننظر الى معتقد الماديين في هذه القوة العامة لانها عقدة الاشكال في هذا الموضوع فنقول :

يقول الماديون ان هذه القوة غير مستقلة ولكنها صفة من صفات المادة يعنون بذلك انه ليس في الوجود الا مادة عمياء متمتعة بقوة عمياء مثلها وانه لا يمكن ان تستقل القوة عن مادتها مطلقاً . تذرعوها بهذه النظرية المدحوضة الى نكران العالم الروحاني بالمرّة وزعموا ان ليس الوجود الا هذا العالم المحسوس المظلم الفاني فان سألهم قائلاً كيف تنكرون الادراك والحكمة المتمتعة بها تلك القوة وأنتم ترون الانسان مع حقارته حياً مدركاً حكماً فهل هو وحدة الحي المدرك الحكيم في هذا الوجود كله ؟ ومن أين أتى له الادراك والحياة ان لم يكن قد استمدّها من حياة عامة مدركة ؟ اذا ضايقهم بامثال هذه الاسئلة أتوك بالمدرّكات العجيبة الغريبة التي لا تصدر الا من أصحاب الخيالات الجنونية كان يقول الدكتور (هرمن شفلر) : الروح ليست الا قوة من قوى المادة ناتجة من الاعصاب مباشرة . ويقول لك (ويرشو) : ليست الحياة الانوعاً من أنواع الميكانيكا ويقول لك (بوشنر) ليس الانسان الا نتيجة المادة وما هو بذلك الكائن الذي يصفه الاخلاقيون فما له ادنى خاصية ممتازة . ويقول لك (دوبوا ريمون) : يوجد في كل

عصب تيار كهربائي وليس الفكر الا حركة من المادة . ويقول لك غيره : ليست خواص الروح غير وظائف المادة الحية فهي بالنسبة للمخ كالبول بالنسبة للكليتين ويقول لك غيره : ان ادراك الانسان لوجود نفسه ليس الا احساساً بالحركات المادية المرتبطة في الاعصاب بتيارات كهربائية ومدركة بواسطة المخ .

وغلا غير هؤلاء وهما النباتي (روتروشييه) والفسيولوجي (بيشا) فزعموا ان الحياة ليست اصلاً من اصول الطبيعة بل هي فلتة استثنائية ضد النواميس العامة للمادة وتعطل وقتي للقوانين الطبيعية الكيماوية التي لم تلبث أن تخضع هذه الفلتة الاستثنائية (الحياة) لجبروتها وترد الحي الى اصله الميت . فالموت على زعمهما هو انتصار قوانين المادة العمياء على الحياة التي هي حالة عرضية وملتة استثنائية .

من يتأمل قليلاً في هذه الاقاويل يعلم لاول وهلة ولو لم يكن له نصيب من العلم انها افتيات على العلم وظلم ميين للمعلومات العصرية . فان العلم اجل من أن ينكر شيئاً بدون برهان واكبر من ان يحل الاشكال باشكال اعوص منه . ونسنا نقول هذا والجو خال لنا من المعارض بل انا نستطيع أن نرفع اصواتنا بهذا أمام هؤلاء المدعين انفسهم لانهم مع ادعائهم ذلك يعرفون كما يعرف كل الناس ان مقولاتهم تلك لا تخرج عن دائرة التصورات الخيالية التي لا يقصد بها الا الملاحة والمعاودة ليس الا .

جاء في احد اعداد المجلة الطبية الباريسية يوماً هذه الجملة : « ليست الفكرة الواحدة الا اتحاداً يشبه اتحاد حمض الفورسيك . والتفكر نفسه ناتج من الفوسفور (الذي هو في تركيب المخ) . فالفضيلة والاخلاص والشجاعة ليست الا تيارات كهربائية عضوية » فرد عليها الاستاذ كاميل فلامريون العلامة الطبيعي قائلاً : « من اخبركم بذلك يا حضرات المحررين ؟ ان الناس يتوهمون ان معلمكم يعلمونكم هذه الهذيان مع ان الامر بخلاف ذلك . لان هذه الادعاءات ليست امام النظر العلمي الا هباء منثوراً . على اني لا ادرى أي الامرين يستحق ان نتعجب منه اكثر : أمن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين العجبيين للعلم أم من سخافة ادعائهم . ان (نيونن) كان يقول : « يظهر لي . . . » (وكبلر) كان يقول : « اني استنزل حكمكم في هذه الفروض . . . » ولكن هؤلاء يقولون : نحن تثبت . نحن ننكر . هذا موجود . هذا غير موجود . العلم قد حكم .

العلم قد أقر . العلم دحض . مع انه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمى . « الى أن قال : انكم تجاسرون بأن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل من ضلالكم ولئن سمعكم العلم أيها السادة — ويجب ان يسمعكم لانكم ابتداء — فقد حق له ان يضحك استهزائاً من غروركم . انكم تقولون العلم يثبت . العلم ينفي . العلم يأمر . العلم ينهى . وبذلك فأنتم تضعون على شفتى هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة وتدخلون الى فؤاده هزة الكبر والعجب . لا يا أيها السادة ان العلم في هذه المسائل لا ينكر شيئاً ولا يثبت شيئاً ولكنه يبحث . وأتم تعلمون ذلك كله ولا تجهأونه . اعلّموا ان شكل جلدكم تغر الجهلّاء وتضلّل كل من لا يستطيع ان يبحث مثلكم . واعرفوا ان الانسان اذا اتسم بسما العلم وجب عليه ان لا يغشه وان يكن أميناً بالنسبة اليه . وان يصير مدافعاً متواضعاً فى دعوى لم يجعلها شرعية حقة الا تواضعها ليس الا . »

هذه الجملة من الاستاذ (كاميل) تبين بطريقة جلية ان العلم برىء من امثال هذه المزايم الفاسدة بالمرة وان هؤلاء الغلاة يفتاتون عليه افنياً شديداً ويتقولون عليه الاقويل التى يابأها العقل ويأنف منها . لذلك اصبحوا منبوذين مردولين يتبرأ منهم كل من يشرف على سخائفهم ويندهش من جبارتهم على تكذيب الحس والمشاهدة ومجاحدة الحقائق الساطعة . قال الاستاذ الطبيعى الانجليزى (مياين ادوارد) : « يجب ان يندهش الانسان لما يرى ان امام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالات يدعون لك ان كل هذه العجائب الكونية ليست الا نتائج الصدفة او بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة واثّر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الحشب ومادة الاحجار . وان الهامات النمل مثل اسمى مدركات القوة المدركة الانسانية ليست الا نتيجة عمل القوى الطبيعية او الكيماوية التى بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الاجسام . ان هذه الفروض الباطلة او بالاولى هذه الاضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضاً فان الطبيعى لا يستطيع ان يعتقدّها ابداً . واذا اطل الانسان على وكر من اوكر بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى اصول اعمالها اليومية . »

ليس لنا ان نفرض بالنسبة لهؤلاء المادحة الا احد فرضين : اما انهم ينكرون الصانع

والروح والخلود عن اعتقاد ثابت . واما انهم مكابرون للحقيقة يريدون ان يشتهروا بمخالفتهم لما فطر عليه البشر ايداناً بانهم سعدوا الى اوج اعلا من العامة حيث لا يشاركونهم فيه الا قليل من الخاصة فان كان الفرض الثانى صحيحاً ففجرد معرفتنا بتخلقهم به يكفينا مؤونة الرد عليهم فى شىء . واما ان كان الفرض الاول فلا يليق ان يتسموا بسما العلماء ولا ان يدعوا لانفسهم لقباً ليسوا عامين على مقتضاه . ذلك لان وظيفة العلم والعالم البحث والتنقيب والوقوف عند المجهولات بناية التواضع لان التجربة تثبت لنا ان مشكلة اليوم تصبح بديهية الغد كما صارت معاضل العصور الحالية مقررات العصور الراهنة . واننا لا نتصور كيف ان عالماً يعلم ان المجهولات تكتشفه من كل جانب وان الذى خاله منها لا يساوى قطرة من بحر مما خبيء عنه منها يحكم احكاماً جائرة على ادق النقط مساساً بفطر البشر ويؤيد مدعاه بفروض وظنون طويلة عريضة وهو يعلم انه فى واد حقيقة الواقع فى واد آخر .

قال الاستاذ (بيو) فى كتابه (شذرات علمية وادبية) : « على قدر ما تدبر فى نظام هذا الوجود وسعته وفى جميع عجائبه اعجب من هذا الابداع المدهش وارانى فى حالة العجز عن تفسيرها وتعليلها . وانى لا أتجاسر بأن اقول — لكونى جربت ذلك بنفسى — بان تلك التفسيرات الناقصة والتعليلات الكاذبة او المبهمة التى يريد ان يقنعنا بها بعض الكتاب العصريين بصفة مدركات سامية لاتظهر بمجھفة وتافهة الا اذا قورنت بالطبيعة نفسها . وان الذين تشرفوا بمعرفة بعض جمال الطبيعة واحسوا بها وجدوا انفسهم مرغمين لان يعتبروا الذين يريدون ان يشوهوا هذا الجمال بتدليسهم القبيح ككفاراً ملاحظة . فان كل الكائنات العضوية متمتعة بوسائل حياتها الذاتية المتنوعة فى اختلاف اجهزتها مثل تنوع الكواكب الزهر فى القبة الزرقاء . وزيادة على هذا فاننا لا نشاهد الا ما يظهر لنا من ذلك فى الخارج وقد حجب عنا ما هو أعجب واغرب . بعيشك قل لى من هذا الذى استطاع ان يفهم الاعمال الكيماوية الخاصة بالاعضاء الحية لهذه الكائنات والتى هي السبب فى حركتها الارادية والغير ارادية .

ماذا أقول ؟ من هذا الذى استطاع ان يفهم سر طيران الذبابة وسر ألعيب الفراش ؟ اذا وصل بنا ادراكنا الى معرفة الاستعدادات الخارجية لهذه التراكيب الجسمانية

والى تحديد العلاقات المرادة الموجودة بين الاجزاء التى تركها . قلنا اذا وصل ادراكنا الى هذا ثم عمينا عن رؤية (الحكمة) التى امرت به ونظمته وعشنا عن تنورها فى صميم هذا المجموع نكون قد ناقضنا ضمائرنا مناقضة تامة . اما انا فأريد على الاقل ان اتعلم من هذا المشهد العظيم انى جاهل لا أدري شيئاً . »

وقال (استوار ميل) : « تبدو الينا الحياة الانسانية محاطة بغوامض الأسرار فنرى دائرة تجاربنا الضيقة كأنها جزيرة صغيرة ضالة فى بحر لا نهاية له يرفع احساساتنا ويساعد قوتنا الخيالية بعظمه وظلامه ومما يزيد ذلك السر غموضاً ان مجال حياتنا الدنيا ليس كجزيرة فى فضاء غير متناه فقط بل فى زمان غير متناه ايضاً . » (١)

وقال (اربرت سبنسر) : « نرى من بين كل هذه الأسرار التى تزداد غموضاً (تأمل) كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحة لا بد منها وهي انه يوجد فوق الانسان قوة ازلية ابدية ينشأ عنها كل شئ . » (٢)

قلنا فيما تقدم ان الألحاد ليس بنتيجة من نتائج العلم ولا يمكن ان يكون كذلك فى عصر من العصور وان الامر بعكس ذلك على خط مستقيم بمعنى ان العلم يؤدى الى الايمان واليقين وقد اثبتنا ذلك من كثير من اقوال علماء الطبيعة انفسهم قال العلامة الطائر الصيت (لينيه) : « ان الله الازلى الكبير العالم بكل شئ والمقتدر على كل شئ قد تجلّى لى ببدايع صنائعه حتى صرت مندهشاً مهوئاً . فإى قدرة وإى حكمة وإى ابداع اودعه فى مصنوعات يده سواء فى اصغر الاشياء او اكبرها . ان المنافع التى نستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذى سخرها لنا كما ان جاهلها وتناسقها تنبئ بوسع حكمته وكما ان حفظها عن التلاشى وتجددها تقرر بجلالته وعظمته . »

وقال العلامة (فونتيل) فى دائرة معارفه : « ان اهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط فى اشياء مهمة عقولنا ولكن اهميتها الكبرى هى رفع عقولنا الى خالق الكون وتحليلتنا باحساسات الاعجاب والاحلال الواجبة لذاته المقدسة . » ولو شئنا لملاّنا من

مثل هذه الاقاويل مجلداً ضخماً وكلها السنة ناطقة بأن العلم رائد الايمان ودليل الهدى الى الرحمن . واما الذين يثرثرون بامثال ما نقلناه من الشبه الاحادية مع عزوهم انفسهم الى العلم الطبيعي فهم رجال لم ينالوا من العلم الاشعاعاً ضئيلاً حائداً عن سيره الطبيعي كما وصفهم الاستاذ (كاميل فلامريون) فصادف ذلك الشعاع منهم فطراً سقيمة وقلوباً دادت من جزائم الشهوات ففعل بها ما رأيت . ونحن لا ننكر ان العلم الطبيعي الناقص اذا صادف الفكر القاصر والقلب الناكص احدث للانسان مرضاً مغنواً شاقاً كثير التعاصي والى هذا المعنى يشير ابو علم الطبيعة الاستاذ (باكون) : « ان العلوم الطبيعية اذا رشفت باطراف الشفاء ابعدت عن الله ولكنها ان شربت عباً اوصلت اليه . »

ومع ذلك فليس العلم الطبيعي منحصرأ في هذا الجزء الصغير الذي استطاع ابن آدم ان يدركه من مظاهر الوجود من يوم حجب اليه البحث عن علل المشاهدات الى الآن . ان ما نلناه الآن من العلم في مدى هذه الالوف المؤلفة من السنين لا يكاد يساوى قطرة مما خبأ للانسان في عالم المستقبل ومن يعيش ير اعاجيب لو حدث بها الآن اعلم العلماء لما تصوروا . الله اكرم وارحم من ان يدع هذا النوع الضعيف القوي هدفاً لمتعاسكات وجداناته وغرضاً لمتشاكسات امياله واحساساته . الانسان يزيد كل يوم علماً ويرق مع ذلك قلباً ويدق شعوراً ويكون عقله ادخل في ميدان العقولات وفكره انفذ الى مجالات المدركات وقد يترقى بعض افراده فيفرض ما لا طاقة له بادراكه توصلاً الى اباب اللباب من الحقيقة وهرباً من ألم الجهل باشد النقط ملامسة لحياته وامياله . مع هذا الترقى المتوالى المحسوس لم يحرمه الخالق الحكيم جل شأنه مما يبيل اوام مطامحه وينقع اوار مطامعه فلا تجده خطا خطوة الى الامام حتى اوسع الله امامه من الباحات ومهد له من الساحات ما لا يستطيع معها ان يدعى ضيق المجال ولا حرج المضمار . هكذا عهدنا الانسان وهكذا عهدنا رحمة الله بالانسان في كل زمان وفي كل مكان . ومن اظهر دلائل رحمة الله بالبشر ووضح اثر من آثار قهاريته في القرن التاسع عشر تلك المسألة التي يسمونها (الاسيريتزم) اى استحضر الارواح فانها احدثت من الآثار الباهرة ما لم تحدته ظاهرة علمية اخرى على الاطلاق

﴿ المادة وما وراء المادة ﴾

(لا الحاد بعد اليوم)

ان من يطالع على ما كتبه بعض علماء المادة في القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر يخيّل له ان مستقبل الاعتقاد بوجود النفس والآخرة محفوف بالمخاطر وانه سيؤول الامر بالناس الى نبذ هاتين العقيدتين والتيقن بأن المادة هي مصدر الحياة وموردها وان دار الثواب والعقاب ليست الا من موضوعات العقول البشرية . وفي الواقع أخذت هذه الفكرة السيئة تنتشر بين الطبقات المتتورة في اوروبا انتشاراً ادى كثيراً من الكتاب الى المجاهرة بها على رؤس الاشهاد والمشافهة بها في كل ناد وكان العلماء المضادون لها من اهل الوجدان السليم قاصري الحجة امام اولئك الذين يصرحون بأنهم لن يقبلوا نظرية في العلم الا اذا كانت مما تقبل الامتحان باحدى مشاعر الانسان . ولا مشاحة في انه لو كان الحال دام على ذلك المنوال لكان الامر آل اليوم الى فشو الحاد دفعة واحدة وطروء اليأس على الافئدة البشرية من الحياة الخالدة . ولا يخفى ما كان ينبت عليه من الفساد الاخلاقي الذي هو ميكروب السل الاجتماعي . ولكن خالق هذا الكون العالم بما سينتهى اليه حال الجمعية البشرية الضئيلة من الحلل والحطل من جراء ذلك المذهب المادي خلق بازاء هذه الحركة الشيطانية عقبة وقف امامها غطاريف المادة حيارى لا يحيرون جواباً ولا يرجعون خطاباً . والتزم من رأى تلك العقبة منهم الى تطابق مذهب المادة بتاتا واقامة الادلة الحسية لاقرانه بانهم عن الحقيقة ضالون وان الروح لها وجود متميز عن الجسم وان الآخرة لاشك فيها . وما أحسن ما كتبه الدكتور الالماني الشهير (كارل دوبرل) في مجلة (ذو كنف) الالمانية . قال : « ان العلوم الطبيعة قد نجارت على نكران خلود النفس . فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع . »

ما هي تلك العقبة التي اصطدم بها مذهب المادة فارتد طرفه خاسئاً وهو حسير ؟ هي ظهور طائفة الروحانيين الذين يزعمون الاتحاد بأرواح الموتى ومكالمتهم ويعملون بواسطتهم

من الخوارق ما لا يصدقه الا من كان على مرأى منهم ومسمع (١)
 كافي ببعض القراء من ذوى الافكار الحادة ينكر على ذلك ويعدّه من باب الخرافات
 التى لا تليق ان تسطر على صفحات الكتب . أقول مهلاً مهلاً فسترى ان أعضاء هذا
 المذهب الذين بلغوا الآن نحو العشرين مليوناً ليسوا الامن رجال العلوم الطبيعية والعقول
 النقية . قال المسيو (جان فينو) مدير مجلة المجلات بعد ان ذكر عدد الروحانيين « ولنضيف
 الى هذا صفة أشياع هذا المذهب فهم اما علماء او اساتذة صنايعيون او اطباء او مهندسون »
 وقال فى موضع آخر « ونحن مع ثنائنا على الذين يريدون كشف أسرار المشعوذين
 منهم لا يجب ان ننسى ان يوجد بجانب هؤلاء رجال اذكاء من الطبقة الاولى وذوو
 ذمم طاهرة لا يشك فيها وكياويون وطبيعيون وعلماء مثل (كروكس) و (ونيير)
 و (ولاس) و (زلنر) . (اوليفيه) و (لودج) و (باريت) و (دومرجان) و (بوتليروف)
 الخ لا يصح ان يفرض ان هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لانجاح الخرافات
 التى أهبطت كثيراً من العظمة الروحية . كما انه من الصعب ان نهم هؤلاء العلماء بالبساطة
 فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية هي أشهر من ان تذكر » اه

لما انتشر هذا المذهب بين علماء أوروبا تألفت سنة ١٨٦٩ جمعية من اكابر علماء
 لوندرد لفحص هذه الخوارق فحسباً دقيقاً علمياً . وكانت هذه الجمعية مركبة هكذا
 (جون لبك) رئيساً لها . (توماهكسلى) أشهر علماء انكلترا و (لويس) الفسيولوجي
 الطائر الصيت وكيلان لها . ومن اعضائها (الفريد رسل ولاس) وهو نديد (دارون)
 الشهير وزميله و (مرجان) رئيس الجمعية الرياضية و (فارلى) رئيس مهندسى كومبانيات
 التلغراف و (جان كوكس) المتشعر الفيلسوف و (اكسون) استاذ فى كلية اكسفورد
 الخ . فلما تكونت هذه الجمعية المهمة اشترأب الناس من كل صوب الى معرفة نتائج

(١) هنا يجب علينا ان نفصح للقراء بأننا لا ندعي مع السواد الاعظم من اتباع
 هذا المذهب بأن خوارق العادات التى سيرها القراء منسوبة للارواح كما اننا لا ندعي
 مع رجال الدين هناك انها معزوة للجن بل نتبع طريق الحياد اقتداء بكثير من العلماء
 الذين كلّفوا بهذا المبحث وقالوا ان تلك الخوارق منسوبة لقوة عاقلة موجودة حقيقة و متميزة
 عن المادة وقائمة بدونها « وما يعلم جنود ربك الا هو »

ابحاثها لعلمهم ان حكمها لا يقبل استثناءً فاستمرت في الفحص الدقيق ١٨ شهراً وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك الاعمال وكتبت بذلك تقريراً مطولاً منه هذه العبارة « ان الجمعية اقتضت في تقريرها على الاعمال التي شاهدها كل الاعضاء مما كانت محسوسة لمشاعرهم وكانت صحتها مقترنة بالبرهان القاطع . ان اربعة اخماس الاعضاء ابتدأوا البحث وهم في أشد درجات الانكار لهذه الاشياء ومعتقدون قلباً وقالباً انها ليست الا نتيجة الغش او الوهم او بالافل نتيجة العمل الاضطرابي للاعصاب . ولكن بعد ان وضحت لهم هذه الاشياء وضوحاً تاماً في شروط نفت كل تلك الفروض وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً لم ير هؤلاء الاعضاء المنكرون بداً من اعتقاد ان هذه الخوارق حقيقية رغم انهم » الخ وهذا هو (كروكس) الطائر الصيت رئيس الجمعية المملوكة البريطانية قد اكد في خطبته التي تلاها يوم توليه الرئاسة انه لم يزل كما كان من منذ ثلاثين سنة يؤكد انه يعتقد بوجود قوة في الطبيعة متمعة بعقل وارادة ومتميزة عن المادة . وهذا هو الدكتور (لمبروزو) أشهر البحاثين في الجرائم بعد ما وسم في مؤلفاته الروحانيين بالجنون اقر بغلطه . وألف كتاباً قال في آخره ناصحاً لغيره « ولنجذر من ادعائنا دقة العقل واعتقاد ان كل الناس من قبيل المخرفين والظن باننا نحن فقط العلماء فان ذلك يوقعنا في الضلال » وهذا هو الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانكليزي الشهير كان اقصى الناس قلباً وامضى العلماء لساناً على هذا المذهب ثم حجب اليه ان يدرسه فاستمر في ذلك ١٥ سنة ثم انتهى امره باعتقاد صحته وصار الآن من كبار اشياعه ومشيعيه وهذا هو الدكتور (شمير الشهير) بعد ما كافح هذا المذهب مدة مديدة فحسه واعتقد صحته وكتب اقراره بغلطه السابق في مجلة (سبرنوالى مجازين) وكذلك كان حال الدكتور المشهور (جيس جالى) .

وقد تألفت جمعية في انكلترا وامريكا تحت رئاسة الاستاذين الشهيرين (هيزلوب) عن امريكا والدكتور (هودسن) عن انكلترا . فاستمرت هذه الجمعية في الفحص والبحث نحواً من اثني عشرة سنة ثم اعلنت اخيراً في سنة ١٨٩٩ انها قد اقتنعت بصحة تلك المشاهدات واعتقدت انها فعل ارواح الموتى . وقد ورد في المجلة الروحية بعض من افكار رئيسي هذه الجمعية نترجم منها ما يأتي :

قال الاستاذ (هيزلوب) : « أوْمل ان أثبت بعد مضي سنة للعالم اجمع ببراهين لا تحتمل شبهه انه يوجد حياة بعد هذه الحياة . ثم قال : وقد رأيت بعينى خوارق ومدهشات حقيقية ليست منسوبة للتدليس ولا للوهم . »

وقال الاستاذ (هودسن) : « العالم على وشك رؤية حوادث خطيرة جداً . فأوْمل انه بعد مضي سنتين او اقل اهدى للعالم اجمع تفسيراً جديداً لنواميس الحياة الانسانية ولهذه الديانة القديمة التى لا يمكن ان يعارضها دين ولا ان تصادمها طائفة من الطوائف . ثم قال : فسيتضح كل شيء للنوع الانسانى الذى يئن ويتألم من الشكوك ويتذبذب معها الى هنا وهناك . ثم قال : واذا كان الاستاذ (هيزلوب) قد أعلن انه تحدث مع ارواح الموتى فانه لم ينطق الا بحقيقة نقية . »

ولما قابله احد مكاتبي الجرائد وسأله عن سبب ايمانه اجابه قائلاً :

« قدابتدأت ابجائى اناوالاستاذ(هيزلوب) من منذ اثنتى عشرة سنة وكنامادين دهرين لا نصدق بشيء مطلقاً ولم يكن لنا الا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس الا . اما اليوم وما ادراك ما اليوم فانى اعتقد واجزم بإمكان المحادثة مع ارواح الموتى . وقد قام لى الدليل على هذا الامر بحيث لا اتصور ان يتطرق اليه الشك مطلقاً . » وقد اشاعت بعض الجرائد يوماً ان الاستاذ الفلكي الشهير (كاميل فلامريون) قد ترك ما كان يعتقده فى الأرواح فقصد مكاتب (الفيجارو) وحصلت بينهما هذه المحادثة : المكاتب — نهارك سعيد يا حضرة الاستاذ . ما الذى طراً ولماذا رفضت مذهبك ؟ الاستاذ — انى لمندهش من الاشاعات التى زاعت بشأنى من منذ ايام فانى لم ارفض مذهبي مطلقاً .

المكاتب — اذن هذا الامر كذب محض

الاستاذ — يقيناً . فانى ادرس دائماً هذه الظواهر الروحية وانى لمعتقد اكثر مما كنت باننا فى غاية الجهل باسرار هذا الوجود . ومع هذا فانى مشغول من منذ بضعة شهور بعمل كتاب سيظهر قريباً اسمه : (المجهول والمسائل الروحية (١)) وسأتكلم

(١) ظهر هذا الكتاب وكان له تأثير فى اوروپا هائل فقد نفذت جملة طبعات

منه فى بضعة اسابيع وقد ترجمنا خلاصته فى الحياة

فيه بالخصوص على ظهور ارواح الموتى» ثم انتقل بهم الكلام الى مسائل فلكية فقال الاستاذ كاميل : « في هذه المناسبة اقول لك انه يوجد مسائل مهمة (يعنى الاسبرتزم) يجب ان تدرس وهى اولى بالعناية من كل المسائل الفلكية . وسأستمر على درسها باستقلال وصدقة . »

قال الاستاذ (كروكس) الذى تولى رئاسة الجمعية الملوكية العلمية الانجليزية وهذا اللقب وحده يكفى في تعريف اهميته وينبئ عن سائر الالقب قال امام مئين من اقرانه في الجمعية في مناسبة الكلام على الاسبرتزم : « انا لا اقول هذا ممكن بل اقول لكم انه حقيقة موجودة . وقال في كتابه المسمى (الابحاث على الظواهر الروحية) الذى طبع عشرات من المرات : « وحيث انى متحقق من صحة هذه الظواهر فمن الجبن الادبى ان آبى الشهادة لها بحجة ان كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم . اما انا فأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة المدققة . »

ومن المؤمنين بهذا المذهب الدكتور (جورج سكستون) الانجليزى . هذا الدكتور يعد ركناً من اركان النهضة العلمية في هذا العصر وكان في مبدأ امره من اشد اعداء هذا المذهب وقد كان كثيراً ما يجرد عليه عضباً من لسانه مرهفاً حتى كاد بفصاحته ان يتغلب على شهادة الحس عند أولئك الباحثين نخشى الكل تأثيره لا سيما ولم يكن من الرجال الذين يمكن اقناعهم بشيء لانه كان مشهوراً بشدة الانتقاد والتشكك . ولكن الامر يريد الله حبيب اليه بحث هذا المذهب فظل يحاوله خمسة عشر سنة لا يعتنقه ان كان صحيحاً ولكن ليجد الوسيلة التجريبية الى دحضه فلم يسعه رغم انه الا الانصياع للحق واعتناقه وكتب مقراً بغلطته عن نفسه يقول (١) : « انى تحصلت في بلى الخاص وبمعزل عن كل واسطة (لاتحضير) غير اصحاب لي لديهم قوة استحضار الارواح . على البرهان الذى يستحيل دحضه (تأمل) والذى هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت بأن المخاطبات التى حصلت عليها هي من احباب واقارب ميتين »

(١) كما رواه عنه الاستاذ (روسل ولاس) في كتابه عجائب العصر الحالى

اما الاستاذ لودج الذى يلقبه العلماء (دارون الطبيعة) فقد وقف امام الجمعية العلمية الانجليزية وقفة الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم وترجى اخوانه ان يهتموا غاية الاهتمام بهذه المسائل الروحية التى هي كما يقول تأسر الباحث بغرائبها المدهشة امراً . ومثل هؤلاء كان حال الدكتور (شامير) الذى له القدم الراسخ فى العلوم الطبية والدكتور (جس جلى) صاحب كتاب (القانون الصحى للأمراض المزمنة) الذى طار صيته فى جميع اقطار العالم الطبي . ومثلهم الاساتذة (اكسون) استاذ كلية اكسفورد اشهر المدارس الانجليزية و (سرجون كوكس) الفيلسوف المتشرع الانجليزى الشهير . والاستاذ (باركس) الحية لوجي الانجليزى الشهير . كل هؤلاء غير الثلاثين عالماً الذين كلقتهم جمعية العلوم بتحقيق خوارق هذه المسألة كما تقدم تفصيلاً قبل قليل .

وكان المستر (جلادستون) من كبار المصدقين بهذا المذهب فقد قال فى بعض كتاباته كما هو مكتوب فى المجلة الروحية : « ادرس مشاهدات الاسبرترزم فان وجدت فيها غشاً وتدليساً فاهزأ بسائر المصدقين بها واسخر بى فى مقدمتهم . »

وقال اللورد (بالفور) وهو السياسى المشهور : « عندى الاسبرترزم افضل من السياسة لانها تفيدنى اكثر منها . » ونحن لم نقل هذين الرجاين الاخيرين الا لكونهما معدودين من رجال العلم .

وقال العلامة (كروموبل قارلى) المتقدم ذكره : « ان الشك والسخريه التى تكذبناها (فى سبيل الاعتقاد بالاسبرترزم) لم تأت الا من جهة الذين لا يحصل لديهم اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معاداة ما يجهلون . » (١)

وكتب الاستاذ الحيلوجي الشهير (باركس) فى مجلة (اتلينس اوف انكستيجشن انتو مودرن سپيريتواليزم) قائلاً : انه قبل ان يعتقد حقيقة الاسبرترزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه او فى دحضه وجادل كل متكلم فيه ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشر سنوات . قال : « وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم فى مشاهداته واخطب به بعلم ودراية . »

وكتب العلامة (اجست مورجان) المتقدم ذكره فى مجلة (فروم ماسترواف سبريت)

قال : « انا مقتنع (بصحة الاسبرترزم) مما رأيته بعيني وسمعته باذني اقتناعاً يجعل تطرق الشك الى مستحيل عندي . وان الروحانيين على الطريق التي تقدم العلوم الطبيعية وليس اضدادهم الا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترتي . »

وكتب الاستاذ (كرومويل ثارلى) الى الاستاذ الشهير (تندرل) (١) يقول : « انا لندرس الآن (من الاسبرترزم) ما كان قبل الفى عام الشغل الشاغل للفلاسفة . ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقفين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضى لرأينا ان الذى يحصل الآن ليس هو الا جانباً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جسورون لدرجة تعلى مقام أولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التي كانت سائدة في زمانهم ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسألة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها . »

وقال الاستاذ (ستون موزس) المدرس بكلية اكسفورد بلندره بعد ان فحص الاسبرترزم عدة سنين هو وظائفه من رجال العلم معه . قال : « ان وضوح وجود هذه القوة المحكومة بعقل يرتكز على ما يأتي : (ا) وضوحها لحكم الحواس . (ب) تكلمها غالباً بلغة يجهاها المستحضر . (ج) سمو الموضوع الذى تتكلم فيه على معلومات المستحضر غالباً . (د) ثبوت استحالة انتاج هذه النتائج بواسطة الغش في الشروط التي حصلت فيها . الخ »

وقال الاستاذ (كروكس) احد رؤساء جمعية العلماء الانجليزية : « انا اقول بغاية البساطة كل ما رأيته وكل ما ثبت لى بالتجارب المتكررة المدققة » وانا لا اقول ان هذا ممكن ولكنى اقول انه ثابت محقق . »

وقال العلامة الفسيولوجي (روسل ولاس) مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعى مع (دارون) فى كتابه المسمى (عجائب الاسبرترزم الحالى) : « لقد كنت دهنياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهنى ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية ان تغالب فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها اشياء مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى

الارواح بمدة طويلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أخرى . (اى بغير نسبتها الى الارواح) وقال الاستاذ (اليوت) رئيس جمعية العلماء الاميريكية فى مجلة (انال بيسيشيك) ما يأتى : منذ مدة وجيزة كان يشق على الأمر كلاً افكر فى اني سأكون كاتباً لتاريخ مثل هذا (تاريخ مشاهدات الاسبرتزم) . ولكن اراني لا استطيع ان اخون اعتقادى بدون ان اهبط من كمالى العقلى . ولا يمكننى السكوت امام هذه المشاهدات الحقة لثلاث اناس للجبن الأدبي . »

من ضمن مشاهير انصار هذا المذهب الاستاذ (زوانر) الفلكي الالماني الشهير المعداد نادرة الزمان في الذكاء . اعتنى هذا العلامة بالبحث فيه ومعه الاساتذة الالمانيين الشهراء (ويبر) و (فيشنر) و (شبنر) و (التريسي) والمسيو (وندت) وكان الواسطة معهم (سلاد) المشهور . بعد شدة البحث والتدقيق اعتقد هو ورفاقه صحة الاسبرتزم كما اعتقدها الوف غيره من العلماء . ولم يكذب ينشر اعتقاده بذلك المذهب حتى تصدى له الاساتذة (فيركو) و (هلمولتز) و (هيكل) ونشروا في بعض الجرائد العلمية ان الاستاذ (زولنر) قد انخدع وانغش وكادوا يؤثرون على مقامه العلمى تأثيراً سيئاً . فبرز اليهم (زولنر) ودعاهم لمناظرته ثم نشر كتابه المسمى : (اوراق علمية) اثبت فيه بغاية الوضوح والدقة مارآه بعينه هو ورفاقه من المشاهدات الحسية . فلم يسع اولئك الاساتذة الا السكوت والانهزام أمام تلك الحجج الناطقة . »

كتب الاستاذ (شارل فوفتى) فى كتابه المسمى (الوحي الجديد — الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الارواح صارت منابع الحياة الاخلاقية مهددة بالغيضان وأحست الجمعية الانسانية من نفسها بانها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذي يجب ان يعقبه الحراب التام . ولكن لما اشترقت فى الازهان هذه الفكرة الجديدة (الاسبرتزم) — وان لم تكن بينة الحدود للآن — أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد فى الافكار . »

فى المؤتمر الاسبريتى العام الذى انعقد فى لوندرد ٢٢ يونيه سنة ١٨٩٨ قام العلامة

(دوروتاش) وتلا مقالة بديعة عنوانها (حدود الطبيعة) جاء منها : « والحاصل فان هذه المشاهدات الخارقة للعادة والتي يفضى النطق بها رجالاً يحسبون انفسهم علماء بجنهم الكثير او القليل في بعض الفروع العلمية ليست هي بالنسبة اليها الا امتداداً للمشاهدات التي رأيناها بانفسنا وصار الشك فيها من قبيل المستحيلات . » وقام الاستاذ (لودج) الرياضى الشهير الذي يفخر به الانجليز في مؤتمر جمعية تقدم العلوم الانجليزية الذي انعقد في سنة ١٨٩١ وتلا مقالة كان لها تأثير عظيم في العالم كله قال منها مشيراً للاسبرترزم : « ان الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب أن ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا سنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لا حد لها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذي نعلمه الآن منه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولو اكتفينا بما اكتشفناه للآن واقتنعنا به نكون قد خننا اقدس الواجبات العلمية . »

اجتمع في سنة ١٨٩٣ عند الاستاذ (فنزى) في ميلان الاساتذة (الكسندر كراكوف) مستشار القيصرة الروسى ومدير مجلة (بسيشيش ستوديان) والاستاذ (جيوفانى) مدير مرصد ميلان الفلكي والدكتور الالماني الطائر الصيت (كارل دوپرل) والاستاذ (أنجلو بروفيريو) والاستاذ (جيوزب جيروزا) مدرس الطبيعيات في مدرسة (بورتيسى) العليا والاستاذ الشهير (شارل ريشيه) المدرس بمدرسة باريس الطبية ومدير المجلة العلمية والاستاذ (شارل لومبروزو) . اجتمع كل هؤلاء العلماء وخصوا المشاهدات الاسبريتية في سبعة عشر مجلساً وكانت الواسطة (مدام اوزابيا بلادينو) فكتبوا تقريراً مكتوباً برمته في مجلد سنة ١٨٩٣ من المجلة الروحية وفيه يشهدون علناً أمام العالم كله بان كل ما شاهدوه من الحوارق لا غش فيه ولا تدليس مطلقاً وان هذه المشاهدات جديدة بالدخول في سلك المسائل العلمية . »

تقدم قبل بضع صفحات ان الاستاذين (هيزلوب) و (هودسن) وعدا بأن يكشفوا اللثام عن معتقدهما في الاسبرترزم ويثبتا للعالم يرايين دامغة خلود الروح ففعل كلاهما ما وعد به وابتدأ الاستاذ (هيزلوب) فسر مدشاهداته المدققة وختمها بهذه العبارة : « لا يمكن تفسير هذه المشاهدات بغير الاسبرترزم . » اي بغير نسبتها الى ارواح الموتى .

أما الدكتور هودسن فقد كتب تقريره في الجزء ٢٢ من نشرة جمعية الابحاث النفسية الانجليزية . نقطف منها ما يأتي مترجماً عن اللغة الفرنسية :

قال في صحيفة ٣٩٦ : « لقد جربت (التأياتيا) بين الاحياء مدة سنين عديدة وها أنا لا أتأخر عن التأكيد بطريقة مطلقة بان الفرض الاسبريقي (اى كـون. هذه المشاهدات منسوبة للارواح) حق لا شبهة فيه وتدل عليه نتائج بحلاف الفرض الاول . »

وجاء في صحيفة ٤٠٥ : « ان وضوح هذه المسائل هذا الوضوح التام قد أزال عنى كل ما كان يصرفنى عن التصديق بان هذه الظواهر نتيجة افعال الموتى . »
وجاء في صحيفة ٤٠٦ : « الآن لا يمكننى أن أقول بأن لدي أدنى شك او ارتياب فى ان المراتى المهمة التى تكلمت عنها فى الصحائف المقدمة هى حقيقة عين الاشخاص الذين تدعى هي انها هم وانهم لم يزالوا احياء بعد تلك الاستحالة التى نسميها نحن الموت وانهم بواسطة جسم (مدام بيبير) المتشجعة يتعرفون مباشرة اليانا نحن الذين نسمى انفسنا احياء . »

أما الدكتور (جييه) المؤلف الفرنسي الطائر الصيت ومعمد الاستاذ (باستور) فى مكتشفاته البديعة حبب اليه البحث فى الاسبرتزم منذ زمان طويل وله فى هذه المسألة كتابان جليلان جداً احدهما اسمه (الاسبرتزم) والآخر اسمه (تحليل الاشياء) . ظهر الاول فى سنة ١٨٨٦ والثاني فى سنة ١٨٩٠

أخذ هذا الدكتور فى فحص الاسبرتزم من منذ ثلاثين سنة فدقق النظر فيه وحرب بنفسه تجارب يقصر عنها من لم يكن على شاكلته ثم الف كتابيه المذكورين على التعاقب فبرى المطالع لهما انه لم يصل الى نتيجته الاخيرة الا بعد هنات وهنات من كثرة تشككه ودقة نظره . فاذا تصفحت كتابه المطبوع فى سنة ١٨٨٦ تجد انه لم يكن لذلك الوقت حاصلاً على البرهان القاطع بخلود الروح ولو كان فكره (المادي) قد تحول عن مركزه تماماً . فانه قال فى مقدمته : « لنعلن على رؤوس الاشهاد باننا أول ما بدأنا درس هذه المباحث النفسية كنا نعتقد من صميم قؤادنا باننا أمام عالم من خيالات واباطيل يجب علينا كشف الستار عنها ونضحها . وقد صرفنا كثيراً من الزمن للتخلص من هذه الفكرة

(اي فكرة كونها خيالات وابطال) . »

ولكنه مع اعترافه بأن مشاهدات الاسبرترزم ليست بخيالات ولا ابطال لم يحصل على البرهان القاطع بخلود الروح لانه ختم عبارته بقوله : « فلنصرح اذن بفكرنا ونقول : كلا . ان كل هذه الظواهر المدهشة التي لا يمكن تفسيرها بمقارنتها بالشيء القليل الذي نعلمه لا تثبت لنا بطريقة مطلقة ان الموت يهب الحربة للذات الانسانية المدركة الباقية . »

ولكنه لم يجيب أمام صعوبات هذا البحث ولم يكتف بهذا الموقف المشكك بل مشى للإمام بقدّم الشجاع الثابت الجأش ثم كتب بعد أربع سنوات كتابه الجليل المسمى (تحليل الاشياء) فصرح فيه بعقيدته حيث قال : « في جلسات التجسد [أى التي تتجسد الارواح فيها وتظهر في جسم يلمس ويحس] يمكن لكل انسان ان يرى شخصاً من عائلته قد مات من منذ زمن بعيد أو قريب فيظهر له عياناً ويكلمه . نعم يكلمك بسريرتك الخاصة التي لا يعلمها غيرك وترى ان صورته لم تتغير ولم تبدل وأن له قلباً يخفق . ويمكنك أن تأخذ صورته بالفتوغرافية ويترك لك شكل يده بل وشكل رأسه بالجيس . كل هذه الاشياء الفتوغرافية والجيسية تبقى لديك برهاناً محسوساً دامغاً على انك لم تر ذلك في الحلم [بل يقظة] . »

« ولنصف لك هنا ان هذا التجسد يحصل بواسطة الارواح العاملة على قوة الواسطة المستعارة منها . ثبت من هنا لدى العلماء الذين شاهدوا هذه الآثار الخارجية الحاصلة بحضور الواسطة بأن هذه المراثيات تحوى على البرهان المفهم الذي لا تحصل على مثله قط بأن لنا روحاً مدركة ومتميزة ومخلدة بعد الموت . »

« بعد الموت يجد الانسان في عالم اسميه [بعد الحياة] في حالة ليست في الحقيقة الا ذاته الكاملة . أما هذه الحالة التي يعيش فيها الآن فليست الا حالة وقية [ولا اقول بدون فائدة] . واذا أراد المطالع ان يتحقق من صدق هذه المشاهدات بنفسه فانه سيقنع بسرعة بأنني لم أبالغ فيما قلت وانه سيرى اعتقاده يقوى ويشدد على قدر ما تكون ابحاثه حازمة ومتكررة ولو كانت هذه المراثيات باطلة لحصل عكس ذلك . »

من بين الدافعين صدر الاحاد في اوروبا والطاعنين كبده العلامة الفلكي الطبيعي الشهير (كاميل فلامريون) فان كتاباته في هذه المواضيع اشهر من ان تذكر من بينها

كتاب نشره حديثاً تحت عنوان (المجهول والمسائل الروحية) . بمجرد ما طبع هذا الكتاب انكب الناس على مطالعته حتى توالى منه عدة طبعات في ايام معدودة . لان الكاتب عالم طبيعى من الطبقة الاولى وفيلسوف حسي شديد العارضة . فما زال في كتابه يحاكم المشاهدات ويقارن احوالها المختلفة ويردها الى القوانين والنواميس المعروفة حتى اتضح له صحة اربع نظريات وضوحاً محسوساً أتى بها في ذيل كتابه كنتائج لمقدماته السابقة . تلك النظريات هي (١) الروح موجودة وجود كائن مستقل عن الجسم . (٢) وهي متمتعة بخصائص لم تنزل للآن مجهولة لدى العلم . (٣) يمكن الروح أن تؤثر أو تتأثر من بعد بدون مساعدة الحواس . (٤) المستقبل مقدر من قبل وقوعه ومحدد بأسباب ستحدثه فيما بعد . فالروح قد تدرك هذا المقدر قبل وقوعه احياناً .

هذه هي النظريات الاربع التي برهن الاستاذ الفرنسي على حقيقتها ببراہين حسية مهمة . ومن ضمن ما طالعناه في ذلك الكتاب قوله في صحيفة ٢٤٦ : « الانسان مسوق بطبعه لانكار كل ما يظهر انه مشكوك فيه وكل ما لا يعلمه وما لا يستطيع ان يفهمه . فانا اذا قرأنا فيما كتبه (هيرودوت) او (پلين) ان امرأة كان لها ثدى في فخدها الايسر وكانت تغذى ولدها منه نضحك ونستهزئ ومع ذلك فان مثل هذه المشاهدات قد تقرر صحتها في جمعية العلماء الفرنسية في باريس بجلستها المنعقدة في ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٧ . وان اخبرنا مخبر بأن رجلاً وجد في احشائه ولد بعد تشريحه وان هذا الولد كان توأماً لذلك الرجل ومحبوساً في جثمانه وانه قد شاخ فيه والتجى فانا نعتبر هذا الخبر خرافة محضة مع اننا قد شاهدنا بانفسنا من مدة ليست ببعيدة مولوداً ولد ميتاً وله من العمر ٥٦ سنة . قال احد مترجمي كتب هيرودوت ولاشر « ان زعمهم ان روكسان (امرأة الاسكندر) ولدت طفلاً بغير رأس يعد من الاشياء المنافية للعقل التي نتيجتها ان تهبط من شرف كشيذائيس (مؤرخ يوناني) » ومع ذلك فان جميع القواميس الطبيعية في هذا العصر تثبت الاطفال الذين يولدون بغير رؤوس . كل هذه الامثلة وكثير غيرها تدعونا الى الاحتياط والتبصر . فان الذين ينكرون الاشياء بدون تحفظ هم الاغبياء الجاهلون . وقد كان يمكننا ان نكثر من هذه الامثلة ولكن رأينا ان ذلك غير مفيد لقراءنا الافاضل فلنكتف بقولنا ان المشاهدات التي نقاناها هنا مطابقة للاسلوب التجريبي

نفسه تمام المطابقة . »

هذا كله يدل على ان في الوجود حركة اعتقادية مهمة جداً ستؤدي الى نتيجة غير منتظرة تحقيقاً لوعد الله تعالى : « كتب الله لاغلبين انا ورسلي ان الله لقوى عزيز » . سبحانهك اللهم ما اكبر سلطانك ! ان هؤلاء الرجال العظام الذين نقلنا اقوايهم في مكاملة الأرواح لو قيل لاحدهم قبل ربح قصير من الزمن بأن له روحاً اضحك من عقل مخاطبه واستهزأ به وعده واحداً من المتأخرين في العقل ولأبي ان يحاوره في هذه المسألة الا بالنكات اللطيفة تمضية للوقت ليس الا . ولكن انظر الآن تجدهم يثبتون لك ما يترفع ان يقوله احد جهالة الشرقيين وينضى احدهم ثلاثين سنة من عمره في بحث واستحضار واخذ ورد ثم يؤلف كتاباً عقيب ذلك يقر فيه امام الملا انه كان مادياً كافراً فاصبح الآن بفضل الاسبرتزم روحياً مؤمناً ثم ينبرى يطعن فيما كان يقول به بالامس طعن المنتصر للحق على الباطل والمغلب للفضائل على الرذائل . أليس هذا عجيب؟ نعم جات رحمة ربي وعظمت حكمته . كم له في تأديب البشر من وسائل وفي كبس عرامهم من ذرائع لو تدبرها الانسان لرأى بعيني بصيرته يد العناية الرحمانية ترفع الانسان مما يرتطم فيه من مهاوى سقطاته وتقيمه على نهج السبيل ووضح المحجة .

تخيّل قوماً رأوا ما وقع فيه الاقدمون من الخيالات وما حملوه عواقبهم من المعتقدات وما استلزم ذلك من بعدهم عن الحقيقة التي هي ضالة الانسانية وما استدعاه من غشوتهم عن تنوير الظواهر الجلية لما ران على ألبابهم من تلك القواعد الاعتقادية . قلنا تخيّل قوماً رأوا ذلك باعينهم ثم انظر كيف يكون مبلغ كراهتهم لبنات الافكار التي لا يؤيدها من الواقع دليل ولا يسززها من الحس برهان . قالوا ما ذا يفيد الدليل والبرهان ان كانا عقليين وقد ثبت ان مدركات العقل كثيراً ما تحيد عن الجادة الحقنة وتلقى بالانسان الى متاهة من الشطحات لا يميز فيها بين الحقائق والأباطيل . ما الذي اوقع الاقدمين في اوهاق الخرافات فحجبوا بذلك عن انفسهم انوار العرفان ؟ ما الذي دهورهم في تهور المدركات السافلة والتصورات النازلة فسدوا دونهم طريق الحقيقة التي هي الغاية لمحاولات الانسان؟ أليس لكونهم اطلقوا افكارهم عنان الجولان ولعقوهم حرية الجزم في الاحكام ؟ أليس لكونهم عموا عما يتنازع الوجدان من المؤثرات وما يتقاسمه من الاعراض التي تجمعها في

واد والحقيقة في واد ؟

ثم قالوا اذا كان الأمر كذلك وكان محض الدليل العقلي غير كاف في اثبات شيء او نفيه فلا سبيل الى معرفة الحقيقة الصحيحة الا اذا سندها من الحسن دعامة ركنية وكان لها من الواقع شهادة قوية . فهم اذن لا يسلمون بغير امتحان ولا يرضخون لغير المحسوسات وينبذون كل بحث يتعلق بمنشأ الوجود ومصير الانسان كما نقلنا ذلك في الفصل السابق عن احد زعمائهم الاستاذ (ليتريه) وعليه فمدار فلسفتهم على العلوم الحقيقية التي موضوعها الموجودات والنواميس التي تتسلط عليها . فقسموا العلوم الى ستة اقسام : الفلك والطبيعات والكيمياء والرياضيات وعلم الحياة وعلم الهيئة الاجتماعية وقالوا ان هذه العلوم سلسلة مؤلفة من حلقات متصلة ببعضها لا تدرك الواحدة حتى تدرك ما قبلها من الحلقات واوها الرياضيات ثم ذهبوا الى ان المعارف تقطع في ارتقائها ثلاثة ادوار مهمة : (الدور الاول) الدور الديني ، (الثاني) : دور ما وراء الطبيعة . (الثالث) : دور العلوم الحسية التجريبية . وهو دور الانسان الحالي .

قل لي بأبيك اذا كان هؤلاء لا يريدون ان يعتقدوا وجود اصل من الاصول او حقيقة نظرية من النظريات الا اذا كان لمشاعرهم الظاهرة سلطان على تحقيقها فكيف يمكنك مهما اوتيت من مواهب الجدل ودقة التعبير وحسن صياغة البراهين ان تثبت لاحدهم ان له روحاً وانه سيحيي بعد ان يموت في عالم غير هذا العالم ؟ كيف تستطيع مهما كنت بليغاً ان تقنع احدهم بوجود عوالم نورانية كعالم الملائكة واشياء اخرى وراء ما ندركه بمشاعرنا الغليظة ما دام لا يريد ان يصدق بعقله الا اذا لمس بيده ؟

« شأنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما » ان الذي خلق الانسان على هذه الصورة من الطماح الفكري والطماع الاحساسى لا يعجزه ان يردده الى العدل كما شطح ويلفته الى الهدى كلما جمع . سنة بالغة وحكمة غير متناهية !

ان الذي قال في محكم كتابه : « كتب الله لاغلبين انا ورسلى ان الله لقوى عزيز » يعرف من اين تقاد العقول المستعصية وكيف تستلين القلوب القاسية وبأى وسيلة تلجأ تلك الجباه العالية العانية الى السجود والاحبات امام عظمتهم وجبروتهم !

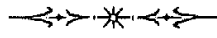
سبحان « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » « الذي خلق كل شيء

فقدرة تقديرأ « الذى امهل هؤلاء الطغاة حتى ملؤا الكون صياحاً واستنفدوا كل وسعهم ومجهودهم فى الحملة على العقائد الفطرية حتى ظنوا انهم ملكوا زمام مشاعر البشر بما سنوه من الشبه والشكوك وانهم توصلوا الى اطفاء نور العقائد من القلوب ثم ارسل عليهم آية من آيات القهر والجبروت فقلبت كل ما تخرصوه رأساً على عقب وحولت مجرى افكارهم دفعة واحدة الى ما زعموا انهم ارفع من الخوض فيه فأبوا الى عقولهم وحشو أهابهم الندم والحسرة على ما غلوا فيه من قبل وعلموا ان للوجود الهاً تغنوا له الحياه السماء وتستخذى امام عرشه الهمم القعساء وان للانسان روحاً ستخرج من الجسد الى عالم ينتظرها فيه عذاب أليم او نعيم مقيم !

بالله اى فؤاد لا يمتلئ ايماناً واي احساس بشري لا يتشبع يقيناً وثباتاً حينما يرى بعينه ان اساتذة الماديين قاموا يجأرون الى الله منيبين اليه ملتجئين الى جنبه مقربين بسابق غلطاتهم بعد ان كانوا بالأمس وليس العهد ببعيد يشمخون بانوفهم كبراً وعتواً ويتبجحون بانهم ارفع مقاماً من ان يتكفوا بعقيدة من العقائد واسمى نفساً من ان يأسروها لدين من الأديان ؟ من كان يصدق ان مثل الاستاذ العلامة (روسل ولاس) الانجليزى وهو اكبر فيسيولوجى فى العصر ومكتشف اعظم نواميس الطبيعة وهوناموس الانتخاب الطبيعي ومساعد العلامة (داروين) فى تأسيسه مذهب الذى كفر الملايين من العالم . قلنا من كان يصدق ان مثل هذا الاستاذ الكبير يرجع بعد تلك الكبرياء فيقول : « لقد كنت دهرىاً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن فى ذهني ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت ان المدهشات الحسية لن تغالب فانها قد قهرتني واجبرتني على اعتبارها اشياء محسوسة قبل ان اعتقد روحانيها بمدة مستطيلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلى شيئاً فشيئاً . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التى كانت يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة اخرى (اى بغير نسبتها لأرواح الموتى . »

ولقد مر بك من مثل هذه الشهادات ما لا يمكن الزيادة عليه فى مثل هذا المختصر وكل تلك الشهادات منسوبة لكبار اساطين العلم ورجال المعارف فانظر رحمك الله كيف

يداوى الله تعالى امراض القلوب ويعالج جراح الاحساسات . لما قام هؤلاء يقولون نحن لا نصدق الا ما نحس به وقالوا ما دام عالم الغيب مستوراً عنا ولا يمكن تحقيقه ، فهو ليس بموجود الا في الوهم وتذرعوا بذلك لاطفاء نور العقائد فتح الله لهم نافذة صغيرة من نوافذ ذلك العالم المغيب عن المشاعر واعطاهم القوة على تحقيقها بالحس والمشاهدة « لكيلا يكون للناس على الله حجة » كل ذلك رحمة منه تعالى بهذا النوع الانساني الذي جعله قمة ابداعه وغاية اختراعه . وكـم في المستقبل من آيات سيظهرها الله لعباده تحقيقاً لوعده في كتابه « ولتعلمن نبأه بعد حين »



﴿ الدور الرابع ﴾

« رجوع الانسان الى دور الفطرة الأولى »

(الاسلام دين الفطرة)

فخصنا في ورقتنا السابقة تأريخ الانسان من جهة التدين وجمعنا اطراف ذلك الموضوع بحيث لا يصعب على المطالع ان يلم لأول وهلة بما كان عليه الانسان وما آل اليه في خلال حياته الارضية في كل هذه الالوف المؤلفة من السنين . وهذا الامام مع ما هو عليه كل انسان في ذاته وما يشعر به في صميم فؤاده من التدافع الوجداني يكفيه لان يعرف من سر هذه المسئلة ما لا يمكن ان يحويه كتاب او يقوم بتحريره كاتب . ان المسئلة اللاهوتية وان كانت في نفسها مشتركة بين سائر مرامي الافئدة البشرية من ادنى زنجى الى ارقى ربانى الا ان المرامي اليها تتفاوت على قدر تفاوت المدارك والاحساسات والمناحي لها تتخالف على قدر تخالف المدركات حتى لا يتصور ان هناك نقطة تشابهها من هذه الحيثية لانها في ذاتها حقيقة الحقائق الغير متناهية . فهي كالمرکز المشترك لدوائر متداخلة تتفاضل في القرب منها والبعد عنها الى ما لا نهاية . لو كانت احساسات الانسان الداخلية ومشاعره القلبية محدودة الوجهة كان اقتناعه

بالحقائق الواضحة اسهل المحاولات ولكن شأن الانسان بالعكس حتى صار اقناع الرجل لأخيه بصدق نظرية او بحقية قاعدة فلسفية من اصعب ما يحاوله الانسان بين ابناء نوعه ليس لكون الحقائق تخالف بتخالف الافراد والامم كما يذهب اليه بعضهم كلاً ولكن لتخالف تأثيراتها على النفوس المختلفة وتباين مواقعها من الافئدة المتباينة . فان للبغض والحب والغم ودرجة العلم ومجال الفكر وكيفية التصور بل وللتربية والطقس والجوع والعطش والثروة والفقر الخ دخلاً في درجة الامام بالحقائق وعملاً في اشراجها للقلب حتى انك لو جشمت نفسك الوقوف على اشكال الافئدة المختلفة وما يتوزعها من مثل هذه الاحوال الغير متناهية في صورها لرجعت وكلك اقرار بأن ذلك من قسم المحال . نحن لا نذهب بك بعيداً . تأمل في نفسك جيداً تر انك ميدان واسع لاختبار هذه الأمور ومجال شاسع للتحقق بطرف مما قدمناه ومن يعجز عن التدبر في نفسه فهو عن التدبر في غيره اعجز .

ولما كان الغرض الاول من وضع كتابنا هذا هو محاربة جرثومة الاحاد التي اخذت تنتشر في شرقنا العزيز محاربة صحيحة وكان علمنا باختلاف المنازع وتضاربها يخوفنا دائماً من اننا ربما لم نصب مقتله ولو عند طائفة من الطوائف رأينا ان نطلق حرية القلم قليلاً في مناح مختلفة من القول وضروب متباينة من الوجدانات لعلمنا استدرك ما عساه قد فاتنا في ما مضى فنقول :

الانسان وما أدراك ما الانسان كائن عجيب التركيب غريب التكوين مستعد في آن واحد لان يكون ملكاً مع الكروبيين بل وانضل منهم اجمعين وان يكون امام الشياطين وقائد الابليسيين . اذا كان حاله كذلك فما هو المرشد الاين الذي يرشده الى الفضيلة ويذره عن الرذيلة . الامر الذي لا يتأتى الا بمجاهدته لنفسه والزامها حدود العدالة . ان قال قائل قد يحتمل ان تحل الحكمة الاخلاقية محل هذه العقيدة الالهية . وتنزل النظمات والقوانين منزلة العقائد والدين نقول هات لنا أمة حالت قوانينها بين أبنائها وشهواتهم وقامت صرامة احكامها حاجزاً دون جرائمهم .

بلغت دولة الرومان ما بلغته من العظمة والرفعة ايام كانت هذه العقيدة عزيزة عليها محبوبة لديها ولما منيت ببعض الفجرة من فلاسفتها الذين أخذوا ينسفون اركان عقيدتها

ويذرونها في اعاصير الشبه الوهمية لم يمر عليها (وهي دولة الرومان دولة العلم في زمانها)
بضع عشرات من السنين حتى انهدم بنيانها وتداعى عمرانها وتغلغل في احشائها اقوام
ليس بينهم وبين الحيوانية الا ركوب الخيول ودق الطبول (راجع تاريخ الرومان)

تدبر في الامم المعاصرة تدبر حكيم تران اقواها جاهاً واكثرها للفلاح اتجاهاً هي
التي تحافظ على شيء من هذه العقيدة الفطرية . ولنرجع فنقول . ان الفضيلة هي مناط
السعادة البشرية ولا سبيل لبوت تلك الفضيلة في النفس الا بالاعتقاد بوجود الخالق .
وما احسن ما قاله الفيلسوف الطائر الصيت (روسو) « كنت اظن ان الانسان قد يتأني
له ان يكون فاضلاً بدون الاعتقاد بوجود الله فاذا بي كنت واحماً حيث علمت انه لا يتأني
ذلك . » اذا كنت تعلم ان الفضائل الاخلاقية (ولا برهان اقوى من شواهد الحس) هي
مناط السعادة الانسانية فقل بعيشك على أي مركز ترتكز تلك الفضائل اذا خلا
الوجدان من الايقان بوجود خالق مثير على الكمالات معاقب على الرذيلات ؟ ماذا
يكون الوازع لهذا الانسان الطموح فيردعه عن اذتراف المظالم وبينه عن التغافل في
الجرائم ؟ ماذا يكون الرادع لشهواته البهيمية عن الوقوع في سفاسفها الوحشية ؟ أي
جريمة لا يستمهاها من خلا جنانه من هذا النور الفطري وأي خزية لا يستلينها من سلب
من فؤاده هذا الروح الالهي ؟ فلا تغتر بنفسك أيها الانسان ولا تخدع بما تشاهده من
اللطيف والدعة في أبناء نوعك فان ألبهم عريكة واكرمهم شيمة لقابل لان يكون أقسى
من النمر قلباً وأعظم من الكلب كلباً وافنك من الاسد زناداً واكثر من الثعلب مكرراً
وادنى من الخنزير نفساً لولا ما في فؤاده من نور هذه العقيدة التي ترد جراح عرامه
وتبيل من أوامره . »

الانسان كائن مشترك بين العالم العلوي والسفلي فان نظرت اليه من حيث مادته لم
تفرق بينه وبين القردة الا بفارق ضعيف . ولكنك لو واجهته من حيثية معناه فلا
تستطيع ان تتصور مخلوقاً أرقى منه . وناهيك بكائن ادرك ان هناك كلاً لا نقص معه .
ورفعة يتلاشى دونها معنى الضعة . فهام بذلك السكال هيام صرعى الهوى . وأمه كما يؤم
الحجيج أم القرى . ولقد تساوى في هذا الهيام كل عالم وجاهل وكل غبي وحكيم حتى
لا تكاد ترى على الوجوه الا آثار الوجد بذلك الملتمس الاسمى والمطلب العزيز

نعم كلنا طالب ذلك الكمال الاعلى بل مسير اليه رغم انه علم أم لم يعلم . حلم به ام لم يحلم . والا فأرني فؤاداً ارتاح الى غاية بلغها . او وجداناً سكن اضطرابه عند نهاية وصلها ؟ أرني غنياً قنع بثرائه ؟ او عظيماً رضى بعلائه ؟ أرني عالماً اكتفى بمعلوماته ؟ او مخترعاً اجتزى باختراعاته ؟ قل لي بعيشك ما هذا النهم في المطالب ؟ وما هذا الشرد في الرغائب أما للقناعة معنى في وجدانك أيها الانسان ؟ أما للرضاء ظل في فؤادك الوهان ؟ أراك لا تنال حتى تتطلب . ولا تسكن حتى تدأب . كل حياتك اطماع . وجميع أوقالك مساع . اما لا طماعك غاية ؟ اما لا مانيك نهاية ؟ كلا . بل أراك لو قدرت على ما في الارض تفت الى التساطع على ما في السماء . ولو نلت مطلوبك في السماء . تطلعت الى ما بعدها من الاشياء . فلا يرضيك والحالة هذه الانهية لا يدرك غورها ولا يتصور آخرها . ان كان الامر كذلك فهل في هذه الارض الحقيمة ما يكفي لسد عوز اطماعك ؟ او يشبع نهم امانيك واممالك ؟ ما الذهب الابريز ؟ ما الجوهر العزيز ؟ ما القصور الشامخة ؟ ما الرياض الياقة ؟ ما الكهرباء الساطعة ؟ بجانب هذه الاطماع الواسعة ؟ والاميال الجائعة ؟ بل ما الدنيا بما فيها بجانب هذه المرامي البعيدة ؟

اذا كان وجدانك كما تراه بعيد مرامي المطالب . شديد الكلف بسوامي الرغائب . وكانت الدنيا بما فيها لا تكفي لا قناعت ولا تجزى بعض اطماعك . فهل جئت للارض لتتعذب بطالب ما لا تناله ؟ وتهيم بما لا تحصله ؟ ان كان كذلك فليمت الانسان صريع الغرام . طعين الهيام . وليقض ايامه بحسرة . وعمره بحرقه . ما ذا يتلمس وجدان الانسان يا ترى من وراء كل هذه المعامع القلبية والى اي شيء تنوق معناه الانسانية ؟ أنسأل الفلاسفة الماديين ام نسأل الفلاسفة الروحيين ؟ كلا لا هؤلاء ولا أولئك نسأل الوجود نفسه فان لسانه ابلغ لسان وبيانه اوضح بيان وبرهانه ادمع برهان ؟ فنقول :

انسدع الداروينيين يقولون ان اسلاف الانسان هم بنو (الشامپنزيه) او بنو (الارنج والجوري) من القرودة ولنذر نصراء الخلق المستقل يقولون ان الانسان صوره مبدعه مستقلاً برأسه وانه منزه عن كل قرابة حيوانية اذ ليس من غرضنا في هذه العجالة ان نلم باطراف الاختلافات الفلسفية على اصل الانواع الحية لان ذلك فضلاً عن

كونه يذهب بلباب مبحثنا في ظلمات هذه الجدليات النازغة لا يكون حاصلًا على تلك المزية التي تجعله صالحًا لارضاء كل المذاهب المتعاكسة وتناول كل درجات المدارك المتضاربة ونكون غير حاصلين الا على رضاء حزب من احزاب كثيرة وليس ذلك في شيء من الخطة التي اختططناها لانفسنا من الهيمنة على العقائد الاسلامية من اسمى الطرق وأدعائها الى رضوخ كل فكر طامح كما يناسب درجة ما لدينا من محكم كلام الله القديم الذي يعلو على كل جدل ويسمو على كل تردد (والله الحجة البالغة) .

قلنا دع الدارونيين واضدادهم واعتبر الانسان من يوم استحقاقه لمرتبة الانسانية سواء بظهوره على مسرح هذا الوجود من اول نشأته على قول اصحاب الخلق المستقل او يوم انتقاله من حضيض الحيوانية الى منصة الانسانية على قول اصحاب النشوء ترى انه أحس بسيادة قوانين ونواميس على وجوده ليست من نوع قوانين ونواميس عالم الحيوان ولا هي امتداد منها . تراه ادرك ان هنالك حقائق يجب عليه الوصول اليها لقيام بناء حياته عليها وميز بين الاشياء قبحاً وجمالاً وبين افعالها خيراً وشرّاً وان ثمت قانوناً اخلاقياً يلزم ان يسود عليه سيادة تامة لشعوره بضرورته على حفظ ذاته ونوعه من العطب .

يقول قائل ان هذا الشعور يستلزم ادراكاً اسمى مما يلزم ان نراه عند الانسان من اول دخوله الى هيحاء هذا العالم الهائل بعد خروجه من مجاهيل ذلك العالم الغيبي . فمن اين له هذا الاحساس السامي الذي هو بعينه كل ما يمتلكه اليوم اكبر فيلسوف في آخر القرن العشرين ؟ نقول ان شعور الانسان بوجود حقائق وراء ما يلمسه وتميزه بين الخير والشر والجمال والقبح من الافعال والاشياء واحساسه بلزوم قانون اخلاق يلزم ان يسود على حركاته وسكناته ليس من باب الادعاءات المجردة عن البرهان الحسى فانه فضلاً عن كونه من المميزات الاولى بين الحالة الحيوانية والحالة الانسانية لها من التاريخ اكبر دليل يؤيدها وذلك اتحاد فلاسفة التاريخ على انه مهما صعدا الانسان ببحثه الى عصر من اعصار الازمنة الانسانية الاولى فلا يستطيع ان يصادف أمة غير متدينة . والدين كما لا يخفى على ابسط احواله يستلزم شعوراً من الانسان بحقيقة وراء المحسوسات وتميزاً بين قبيح وجميل وخير وشر وعلى هذا الشعور وهذا التمييز ينبني

ولا شك ما نسميه بالقانون الاخلاقي . ولا ننسى هنا ان نقول لا يلزم من ذلك ان تكون تلك الديانات بجميع فروعها مصيبة كبد الحقائق المطلقة ولكن ذلك لا يمنع من الجزم بان ما قدمناه هو لازم من لوازم الفطرة الانسانية ولو جردت ذلك عنها فاي فرق تراه بين الانسان والحيوان ؟ قذف بالانسان من عالم يحججه في جملته وتفصيله الى عالم لا يعلم منه الا بما تسمح له به مشاعره القاصرة الضئيلة . اينما يوجه طرفه فلا يرى الا مجاهيل اذا نفذ وراءها رائد البصيرة عاد ومعه من لوازم الجهل بها ما يزيد احساسه حيرةً وولهاً ويزكي وجدانه شغفاً وولوعاً . يرى في نفسه غريزة كشف الاستار عن الاسرار او بعبارة أخرى ابتكار ما يقيم اود ذاته من غذاء ومسكن وسلاح يدافع به افاعيل الطبيعة المحدقة به من كل جانب والتي تناوئه بجميع الوسائل . فتارة بزمهريرها وأخرى بجرورها . مرة بحيوانها وأخرى بنباتها . يوماً بانهارها وآخر بجبالها وتلاها . وكل حين بما ركب فيه من اجزائها . فوجد الانسان نفسه بين حركتين قويتين لا دافع لهما . اولاهما حركة من الخارج الى الداخل وثانيتهما حركة من الداخل الى الخارج . فالاولى تأثير الاشياء المحيطة به على نفسه بواسطة الحواس والثانية اثر النفس على تلك الاشياء بواسطة الارادة .

من هنا نارت نأثرة الحرب العوان بين الطبيعة والانسان . فصاحت الطبيعة في جنودها صيحة ارعشت الجبال الشم فرقاً ودفعت تيارات الانهار وهلاً واسقطت الصواعق خشية وذهولاً ونادت في افاعيلها ان استعدى لكفاح هذا الكائن الضعيف الظاهر ، القوى مباطن ، الشديد الوطأة الخطر الحطة ، الذي يريد ان يستخدم عظمى ويستذل قوتى ويظامن من مقامي . اما الانسان فلم يفعل حيال تلك الصيحة المزعجة التي نفذت الى اعماق كل ذرة من ذرات جثمانه واستنزلت كسف الحشية على وجدانه الا انه ادرك انه شيء وكل هذه الطبيعة شيء آخر اذ لو كان منها ما وجد كل هذا العداء الهائل وللقى راحته فيها كغيره تحت ظلها الوارف . هذا الشعور دعاه رغم انفه الى الاستقلال بنفسه والتدبر فيها وبعثه الى الفكر في ذاته وفي سائر مرامياتهم جرد منها مسيطراً على امياله منتقداً على افعاله لكيلا يكون وراء اندفاعه خلف مطلوباته الكثيرة منفذاً لأسنة الطبيعة المشرعة اليه من كل جانب . فكان يرى نفسه كأنها نفسان ! نفس

تحسن له الجرى وراء المطالب والسعى فى اعقاب الرغائب ونفس أخرى ترده عن الاندفاع قبل الاحتياط وترى الخطر المحدودق به الذى يتهده فى كل لحظة من حياته . من هذين العاملين السريين شئت فى ضمير الانسان حرب سرية تصغر امامها تلك الحرب الخارجية وكانت منبعثاً لآلامه وشكوكه وسائر هواجسه وخواطره ومن هذه التفاعلات نفسها تجلت انوار العقل من كشافات هذه الطبيعة واشرقت شمس الفطنة من مشارقها المنيفة ولولا ذلك لصار الانسان حيواناً من الحيوانات ولما ارتقى ولا درجة من درجات الكمالات .

ارنى اعلم الناس بامور حياته واصدقهم نظراً فى اعقاب محاولاته واقربهم تناولاً للحقائق من ذاته ثم قل لى بعيشك الا تراه اكثر من غيره مصائب ومحناً واشدهم من آلامه ايناً وحزناً نعم ان العقل ابن المصيبة والالم منهما تولد وعلى ثديهما ينمو الى الابد !

شغف الانسان بالتحسس على معرفة نفسه وكلف بكشف الغطاء عما يحجبه منها لا سيما وهي احب الاشياء اليه وحياتها اعز شئ عليه . ينظر الانسان الى الطبيعة فى مجموعها فىرى الحياة فيها تجدد والانواع تتلاشى وتتولد ولكنه متى نظر الى اجزائها رأى الامر مرعباً مهولاً ! رأى هوة الفناء فافرة فاهماً تبلع من اجزائها ما ادى وظيفته وانتهت حاجة الكل اليه فيكاد يصعق فزعاً ثم يعود سائلاً : هل انا ايضاً من ضمن المحكوم عليهم بهذا الفناء المظلم ؟ هل بعد ما احب واتألم واصح واسقم واذوق من صاب المصائب امر من العلقم اساوى فى نهايتى هذا الحجر الاصم او هذا الحيوان الاعجم ؟ هذه الاسئلة التى تشغل كل قلب وتغص كل فكر هى التى لم تزل تشود وجه مسرات الانسان وتجبب اليه لولم يكن بعد ان قد كان . وهى التى تسوقه رغم انه الى معرفة ذاته للوقوف على سر حياته .

يستحيل ان يعرف الانسان نفسه الا على وجه محدود ولكنه ليس ممن يرضيه حد فيقف عنده ولا ممن يقنعه مرمى فياتزم حده . الانسان يجد ويجتهد ويبتكر ويكتشف ولكنه متى قارب ان تهزه رحيق الطرب وينادى ان قد نلت من العلم الارب لا يلبث ان يرى مجهولاً يرنو اليه وينهال عليه بل لا يلبث حتى يرى ان فيما علمه وزعم

معرفته مجهولاً بل مجهولات كثيرة . ولكن كيف يتسنى للانسان ان يخرج من ظل جثمانه او يصعد على كتفى نفسه لينيف على الحائط الذى يستر عنه وجه الحقيقة ؟

هذه حالة الانسان فى معقولانه اما حاله فى ملذاته فهى انكى واشد ! تراه ينبعث وراء ما يظنه لذة فيؤوب وملء وطابه حسرة وندماً وحشو فؤاده كدراً والمأ . ولو حاسب بعض من يدعى اللذة انفسهم لعلموا ان اصغر نوع منها مبيد لحياتهم مطفىء لنور انسانيتهم فهى مما لا يعتد بها مطلقاً ما دام فى تواليها تلك المخاوف المعجزة . يقول بعض هؤلاء ان سبب عدم وجود السعادة هو الجهل بطرائقها ولكننا نقول كما قال بعض الاولين : لا نتيجة لكثرة البحث عن السعادة الا توسيع دائرة الالم !

اما من حيثية اخلاقه فليس الانسان باقل استهدافاً للشقاء بها من سواها . تراه ادرك ان الفضائل عماد بقاءه ودعائم وجوده وان الرذائل اسباب فناءه ولكنه كلما اشرأب نحو الخير وجد الشر لاصقاً بذاته ملازماً له فى سائر مجهوداته . وربما سيق رغم انفه ليعمل ما يكرهه دون ما يرضاه . تراه ادرك قانون العدالة وتحقق انه قيوم سعاداته فيتطاول الى التقرب منه ولكنه على قدر تقربه منه يدرك انه ظالم لنفسه وبني نوعه وهذا مهبط آخر لمنغصات جديدة وآلام شديدة !

فما هو طريق الخلاص من كل هذه المكدرات الملازمة لهذا النوع الانسانى العجيب ؟ كيف يتوصل الانسان الى التوفيق بين متعاكسات طبيعته والملائمة بين ما يحس به وما يتوق اليه ؟ يقول بعضهم ان الخلاص معقود باهداب العلوم الطبيعية والمكتشفات المادية . نقول عفواً ! ان تاك المكتشفات والترقيات الجسدانية تزيد علل الروح استئراء وتحيد لادوائها ادواء لفقدانها اي سبب يعطيها بعضاً من الراحة التى تتطلبها وهل لدينا برهان على ذلك اسطع من الاستشهاد باقوال المتمدين انفسهم قال الاستاذ (سينييه) فى كتابه الفاسفة الدينية : « ما سبب هذا الانين الذى يريد من كل جانب عند ظهور آخر كتاب فلسفى او قصة جديدة او قطعة تمثيلية فى غاية الاتقان ان لم يكن هو الشهيق المالىخولى الذى تسببه حياة قريبة من التلاشى وعالم هرم واحس انه سائر الى قبره . أوجب علينا ان نأبى التفكير لنحفظ لانفسنا الشجاعة على مضض الحياة ام نصبر على آلام الموت لنحفظ لها حق التفكير ؟ »

من كل هذه المتعاضات الضميرية والحن الوجدانية والمصائب السرية ينشأ في الانسان الاحساس بالدين وهو الاحساس الوحيد الذي يعزبه في مصابه ويصبره على اوصابه ليس لكونه يحل له مسألة الحياة حلاً نظرياً مهماً ولكن حلاً عملياً واضحاً . نعم ان ذلك الاحساس لا يهبه معلومات جديدة ولكنه يرجع به بعد طول الشطط والتخبط الى وجوده الاصلى وكونه الاولى . هذا الاندفاع من النفس وراء التدين لا يعد اندفاعاً في الفراغ ولا هو من التشبث باطراف الخيال . كلا لانه مستند على احساس ملازم لطبيعة الانسان ملاصق لكيانه . وهذا الاحساس هو الشعور الفطرى بالحاجة الى سند متين امام تيارات هذا الوجود المدهش واعاصير هذا الكون المرعب . من منا لا يشعر بحاجته الى سند يستند عليه عند اقل خطر يهدد وجوده ؟ من منا لا تأخذه رعدة الخشية والخشوع اذا نظر الى القبة الزرقاء وتأمل في تلك اللانهاية الخيفة ؟ من منا لا يستولى عليه احساس بخشية ما في ليلة تحلوا لك سماؤها وتكاثف سحائبها وتزجر رعودها وتلمع بروقها حينما يكون الهدوء شاملاً والسكون عاماً ؟ بل من منا اذا تفكر انه لا محالة ميت لا يلم به نوع من الفرع يجبره رغم انفه الى التحسس على ما يخصه من مخالب المنية حينما تمد ساعدها اليه ؟

هذا الشعور بالحاجة الى السند هو القاعدة العملية القوية المحسوسة التي يرتكز عليها الاعتقاد الجازم بالمكون الاول لهذا الكون والمبدع الحكيم لانا عليه وقواه الغير محدودة وان شئت ان تنزل في التعبير فقل بتلك القوة العظمى السائدة على كل كائن العاملة في كل ذرة . لم يخل عصر من اعصار التاريخ من هذا الشعور ونضلاً عن كونه لم يقل في هذا العصر صار أقوى مما كان قبلاً على نسبة سمو الادراك والفكر وسيتزايد كلما ارتقى الانسان في سلم الكمال . ولا نقول ذلك مجرداً عن البرهان واحسن عبارة موجودة امام اعياننا الآن جملة مهمة للفياسوف (سبتيه) في كتابه المتقدم ذكره قال حضرة : « لماذا انا متدين ؟ انى لم احرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وارانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : انا متدين لكونى لا استطيع خلاف ذلك لان التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لي ذلك اثر من آثار الوراثة او التربية او المزاج . فاقول لهم قد اعترضت على نفسى غالباً بنفس هذا الاعتراض ولكنى وجدته يقهقر

المسألة ولا يستطيع ان يحلها . ان ضرورة الدين التي اشاهدها في حياتي الشخصية اشاهدها باكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست باقل تشبهاً منى باهداب الدين . فعبثاً تغشها العبادات التي اعتنقها ثم هجرتها (يعنى كل ذلك لا يجعلها تسأم الدين) . وباطلاً تهدم الفلاسفة والعلماء ما فيها من خرافات ومعتقدات . وباطلاً تترك الديانة آثار الدماء والنيران لائحة على تاريخ النوع الانساني . فهي لم تزل حية مثل النبات القوي في كل درجات العقول وفي كل ثورة من ثورات البشر . وقد قطع ساق هذا النبات من على وجه الارض الف مرة ولكن جذره الاصلى لا يلبث حتى ينبت ساقاً وافرغاً جديدة « ثم قال « اذن الدين مخلد وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه مع الزمن (تأمل) نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي وانتجارب الحيوية المؤلمة . « ثم قال « اذن فلا يفرح اعداء الدين ولا يتكدرن انصاره (تأمل) لان فرح الاولين وكدر الآخرين يثبت من كلا الحزبين عدم معرفتهما باصله وينبوعه . فانهم ان بحثوا عنه في انفسهم يجدوه حياً في حياتهم الداخلية على قدر ما يجدون مظاهره الخارجية مهددة (يريد بذلك الخرافات التي الصقت بالديانات .) ثم ختم عبارته بقوله : « فبالديانة ابتدأت الانسانية بان تحيا في نفسها وبها ايضاً ستقوى وتنتهى . »

هذا هو القول الحق فان الفطر قد ملت في بلاد المدنية من تعاكس وجداناتها وعدم الوفاق بين ماتعمل به وما تعتقده وكيف لا تمل الفطر ولا تستوحش الأفتدة من خلوها من اسمى رغائبها وحرمانها من اجل مرمى لمشاعرها ؟ كتب الكاتب الفرنسي الشهير (بيرنجيه) في مجلة المجلات الفرنسية (مجلد ٢٤) يقول : « آه ! لو توصلت بعض القرائح السامية بعد ان تمزق غلف التعصب الديني والعلمي في آن واحد الى كشف النقاب عن حقيقة العلاتة الاكيدة الموجودة بين الاحساس الديني وبين الفكر العلمي . وتسنى لها بذلك ان تحسم هذا الداء الذي يؤلم نفوساً كثيرة منذ قرون . قلنا لو توصلت بعض القرائح الى ذلك فبأى تهويل ونحمس تقابلها الشيبة الجديدة . »

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل

الشاغل لأساطين العلماء في البلاد المتقدمة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط . جاء في مجلة المجالات مجلد ٢٤ ما يأتي : « ان هذه المسألة هي اهم مايشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتقدمة يتعلق بحلها . »

ولكن من اى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية ومن اى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوسوس وعلى اى دعامة ارتكز التصور للصعود اليها ؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى اصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما اصبحت من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن اصولها ونزوات توزعت مبانها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل فى كل دور من ادوار الانسان تبرهن على استقلالها وثباتها قال (هنرى بيرنجيه) المتقدم ذكره فى المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخي قد هدم كل الاشكال الثابتة الغير قابلة للتغير فى الاديان فانه لم يستطع ان يعدو على تلك الغريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم انفه . ففي كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية فى اخس الأديان الوثنية كما فى ارقى العبادات الروحانية . هذه هي الشرارة النفسية (الذوقية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الامظاهر خيالية لهذه الغريزة الدينية فستتلاشى آجلاً او عاجلاً ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الغريزة ان تتلاشى ابداً الامع الانسان نفسه . »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها الفطري ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (نؤمل فى ذلك) (اى الوصول الى حل المسئلة الدينية) لا سيما وانه منذ مائة عام قد كوّنّت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين (لجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنييه) و (ميشليه) و (كينييه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا (ارنست رنان) و (جيو) و (شوريه) و (سبتييه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظيمة .) فما هي يأتري أصول هذه الديانة الجديدة التى

يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة ؟ يحسن بنا أن نأتي هذا السؤال على اساطين الفلسفة في اوروپا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) : (قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خالق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح في جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى امداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة العقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخلص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتمهيد لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى الانسان في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة » وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جون سيمون) في كتابه (الديانة الطبيعية) : « كل اصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها . اما اصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شيء ولا يغيره شيء خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة اخرى تؤدي لناكل وعود هذه الحياة الدنيا وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى » هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانساني الى الدين على ابسط اشكاله اى الى الدين الفطرى الذى حمله الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن في ظل معارف القرن العشرين قائلين :

﴿ الاسلام هو دين الفطرة ﴾

قال الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » هذا نص صريح على ان الدين الحق هو الوقوف عند حد ما فطر عليه الانسان في صميم طبيعته وان كثرة اللجاج واعطاء الخيالات حق التلاعب في اصول العقائد ليس من الدين النقي في شيء بل من

شطحات الظنون ونزغات الاهواء التي لم ينزل الله بها من سلطان . قال الله تعالى : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)

علم الله ان النفوس تتوق الى ما سترته عنها يد الغيوب وتتشوف الى كشف الغطاء عن كل محجوب وان هذا الميل قد يطررها الى محاولة البحث في كنه ذاته وهو البحث الذي فصح روابط المأل بعد استحكامها ونكت قتل الوحدة من بينها فسد على متبعي شريعته الفطرية هذا ينبوع من الشر سداً محكماً فقال تعالى : (ليس كمثله شيء . لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » فكان هذا اكبر رادع لشهوات العقول عن التطاول الى مقامه الرفيع بما لديها من وسائل واهية ومعلومات نسبية ضئيلة .

علوم الانسان على اختلاف انواعها وقواه العقلية على كبر سلطانها ليست الا نتائج تدافع القوة الادراكية مع هذا العالم الارضي المتلاشي . اذا كان الامر كذلك اليس من الجنون المحض محاولة الوصول بهذا العلم المحدود وذلك العقل القاصر الى تحديد صفات سر الاسرار الكونية التي لانهاية لها وادراك كنه ذاته العلية التي لا حد لأكملها ؟ اي عاقل يتلج صدره على ما وصل اليه عقلاه من صفات الله تعالى وهو يرى بعينه ان علم اللاهوت عند سائر الامم متبع خطة التدرج في الترقى على حسب ارتقاء العقل البشري (قال فلاسليون) في كتابه المسمى (الله في الطبيعة) « ان فكرة اسلافنا في الله كانت في كل زمان مناسبة لدرجات العلم التي حصلها النوع الانساني على التعاقب » اذا كان الامر كذلك وثبت ان كل وصف يستطيع العقل ان يصف الله به احط من مقامه القدسي بمراحل بل من المؤكد انه لا يلبث الا قليلاً ثم يصير لدى العقل المستقبل في أخس درجات الخشونة بالنسبة لما يكون قد وصل اليه علمه من عظم قدر الله تعالى فكيف لا يرعوى الانسان بعد ذلك كله ويعتقد ان كمال الله فوق كل كمال وان التهجم على فتق الحجب التي تحجبنا عن ذاته بمساير هذا العقل الاعتيادي القاصر جريمة لا تغتفر وان الواجب على كل ذي فطرة سليمة ان يكتفي بما في وجدانه من الاحساس بوجوده مقرأ بالعجز عن تناول علم ذاته ؟ هذا هو التنزيه في الاسلام الذي آب اليه اصحاب الديانة الفطرية الطبيعية بعد ما ارتهم علومهم التجريبية ان ادعاء الاحاطة بسر هذه المادة المحسوسة جهل فاضح فبالاك بسر الاسرار ومشرق الارواح والانوار . قال الفيلسوف (فلاسليون) مندهشاً من عظمة الله تعالى

ومستهجننا عقل من تجارى على تحديده « اللهم ما اكبرك ! من ذا الذي تجاسر به سماءك لأول مرة ؟ ومن ذلك المتكبر المجنون الذي حاول لأول مرة ان يعرفك بتعريف ! يا الله . يا الله . يا قوة غير متناهية ! يا رحمة غير محدودة ! يا لانهاية سامية ! يا من لا تدرك ذاته العقول ! » الخ . أليس هذا التنزيه الذى يفخر به علماء العصر الحاضر ويعدونه علامة لرقى العقل الانسانى خطوات جديدة للفلسفة الدينية ليس هو الا ترديداً لقول (ابى بكر الصديق) رضى الله عنه « العجز عن درك الادراك ادراك » وقول علي كرم الله وجهه « هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته . وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس ان يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته . وتولت القلوب اليه لتجربى فى كيفية صفاته . وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهى تجوب فى مهاوى سدف القيوب متخاضة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بالاعتساف كنه معرفته ولا تحظر ببال أولى الريات خاطرة من تقدير جلال عزته » هذه هي عقيدة المساحين فى تنزيه خالقهم عن مشاكلة المخلوقين وقد رأيت انها النقطة التى آب اليها النوع الانسانى بعد ما طاف على كل دور خيالى وارتطم بكل عقبة فى سبيل العودة اليها .

لا يلزمنا ان نختتم مقالنا هذا حتى نشير الى موقف عقائدنا الطاهرة امام العلم فان مسألة التوفيق بين هذين المطلبين الروحانيين (العلم والدين) اصبحت الشغل الشاغل للغيورين على حياة هذا النوع الانسانى . وقد حاول نفر غير قليل من اصحاب الاديان ان يطبقوا بينها وبين العقل فتعاصى عليهم الامر وآبوا والسخرية تشيعهم الى حيث لا تسمع لهم بعد ذلك ركزاً . أما الاسلام الذى يصرح بلسان كتابه السماوى بأن الانسان نوع مشترك بين العالم العلوى والسفلى او الروحانى والجسمانى وانه مستعد لبلوغ غاية لا تحددها الافكار البعيدة المرامى سواء فى الترقيات الصورية او المعنوية وان الله قد استودعنا من المواهب السامية والمدارك العالية ما يبلغ بنا تلك القمة الكمالية وانه سخر لنا جميع العوالم الطينية والنورانية . قلنا ان الاسلام الذى هذا شأنه لا يعقل انه يعارض العلم الطبيعى او يحاقيه بوجه من الوجوه .

ان ديننا يقول لنويه : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » ويقول :

« خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . » ويقول : « اطاب العلم من المهد الى المجد . » لا يعقل انه يعارض علماً او يصادم حكمة . نعم لم يأت الاسلام ليعلم ذويه نواميس الجذب والتنافر والامتصاص ولا قوانين الزوايا الكروية ومساحات القطاعات الزائدة والناقصة ولكنه أتى بالدعوة الى تعامها وتبكيك الغافلين عنها فقال تعالى : وكأين من آية في السموات والارض يرون عليها وهم عنها معرضون . « تل انظروا ماذا في السموات والارض . »

نحن لو تأملنا في منابع كل العلوم الطبيعية وجدناها في خصائص العقل والحس . فاما العقل فقد رفع الاسلام من شأنه لدرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الامم المتدنية حتى انه جعله مناط الايمان واصل اليقين . قال عليه الصلاة والسلام : « الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . » بل امرنا بتطبيق اصولنا الدينية على العقل حتى تطمئن النفوس على عقيدتها ولا يخامرها الشك فيها فقال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . الخ الحديث . » وجعل مقدار الثواب في الدار الآخرة متناسباً مع درجة العقل في الحياة الدنيا فقال عليه الصلاة والسلام : « وانما يرتفع العباد غداً في الدرجات الزايف من ربهم على قدر عقولهم . » وأما من جهة الحس فلا يتصور أن الاسلام يهب للعقل مثل ذلك السلطان الذي قدمناه لك ولا يعلق على احكام الحس أهمية ما . الاسلام قضى على الظن والوهم وهما يقابلان الحس قضاء شديداً وانذر ذويهما اكبر انذار وحذر متبعيه من مجارة اصحاب الظنون والاهوام فقال تعالى : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون . » وقرر لنا بعد ذلك أن احكام الحس لا تقبل جدالاً ولا تحتل ممارسة وقذف على الذين يمارون في ذلك من سهام التبكيك والتقريع ما لا يرضى به الاعداد الوهم فقال تعالى : « أفتمارونه على ما يرى »

هذا حكم الاسلام بالنسبة لمنبج العلوم الطبيعية وهما الحس والعقل وقد رأيت مقدار تشريف الاسلام لهما وانه قد قررهما لمتبعيه في الحين الذي كانت فيه سائر الامم تحنى رؤوسها لاحكام الاهوام وخز عبلات الاحلام وتعد مقاضات العقائد أمام محاكم العقل من الضلالات التي يستحق صاحبها الحرق بالنار . ليس في الاسلام عقيدة لا تنطبق على

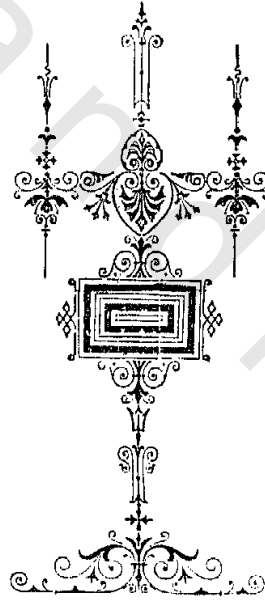
قوانين العقل والحس معاً ومن ادعى غير ذلك فليأتنا بساطان مبين .

هذا شأن الاسلام من حيث طهارة العقيدة وملاءمتها لما يعده اساطين فلاسفة العصر ديناً فطرياً طبيعياً لملاءمته لحاجات النفوس وانطباقه على نوااميس الخليقة . اما آثار هذا الدين على همم معتقديه من حيث الترقيات المادية فما لم يرو لنا تاريخ الاديان مثلها لاي دين من الاديان ؟ جاء هذا الدين الى تلك الامة الصغيرة وهي من معاداة المدنية بمكان ظنت معه ان حالة البداوة ارقى احوال الانسانية وغالت في ذلك فعدت سكنى القصور والاعتصام بالحصون من بعض مسببات الفرس والروم فلم يمحض عليها غير بضع وعشرين سنة حتى دبت فيها روح جديدة وسرت في عروقها حياة غير التي كانت لديها من قبل ولم يدر عليها قرن بعد تلك الحركة حتى استولت على صولجان السلاطة والعظمة ووطئت بلاداً لم تكن تعرف اسمها وارتقت في الوجود مكاناً لا يمكن ان يتجاهله مكابر . قال العلامة (دروى) احد وزراء المعارف السابقين في فرنسا في تاريخه « بينما اهل اوروبا تأنهون في دجي الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط اذ سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية من علوم ادب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدائن بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وقاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت في الالم وامتد منها اهل اوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنوناً علمية يأتى بيانها . » وقال في سبقهم في كفاة المحاولات الانسانية : « واما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها بسائر الاوقات مم لما امتدت سلطنتهم من (الپيرينية) وهي جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال (هاليا) التي باقصى شمال الهند صاروا اكبر تجار الهند . واما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب الحياة وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم المحرقة فسيرتهم في ذلك العامل بها الى الآن اهل روضة اسبانيا صالحة لان نجعلها اسوة تقتدى بها في فلاحتنا الفرنسية . واما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلاد الرومانيين العظيمة حتى صاروا من احذق اربابها . » وقال في سعة سلطانهم : « قد امتد ملكهم في ظرف مائة سنة من ظهور الاسلام مثل ما يمتد عظيم الخاقه فاتحاً ذراعيه لالتقاط شئ فبالغ من اتصى الهند الى جبال (پيرينه) الكائنة

بين فرنسا واسبانيا وقدر امتداد هذا الملك من الف وسبعمائة الى الف وثمانمائة فرسخ ولم تبلغ هذا المبلغ دولة من الدول الماضية . « وقال الاستاذ (سديو) في تاريخه وهو أحد اعضاء جمعية العلماء الفرنسية : « وبعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمع قبائل العرب امة واحدة تقصد مقصداً واحداً ظهرت للعيان امة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر (تاج) في اسبانيا الى نهر (الجانج) في الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن في الارض ايام كانت اوروبا مظلمة بجهالات اهلها في دوائرها القرون المتوسطة » ثم قال : « انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على اوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع دوائرها وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها . ثم استشهد بقول (اسكندر همبولد) ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الامم المنتشرة من شواطئ نهر (الفرات) الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم واسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على ايديهم لان لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم اثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبهه غيره فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني اسرائيل الذين لا يطيقون مخالطة احد من الناس فانهم خالطوا غيرهم من غير ان يخاطبوا به ولا يتبدل طبيعتهم بكثرة المخالطة ولا ينسون اصلهم الذي خرجوا منه وما اخذت امة (المانيا) من التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم فحينما حلوا حل معهم فيعيشون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم واشعارهم الشهيرة التي هي اساس بني عليه (المنسفر والتر بدور) اشعارهم . ثم قال بعد ذلك : ونعود الآن فنقول انه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيته الى اوروبا النصرانية وهذا حجة على انهم كما قاله غيرنا ونحن نعتز به اساتذتنا ومعلمونا . »

هذا شأن الاسلام من حيث الامور المعنوية والصورية . فاذا نريد بعد هذا ؟ رأينا باعيننا ان النوع البشري يتقرب من عقائدنا يوماً بعد يوم كما اثبتنا ذلك بالبرهان في هذا الفصل ثم رأينا من شهادة علماء الفرنجة انفسهم ان ديننا دين مدني عجيب التأثير ثم انا

نرى انه اخذ في الانتشار بطريقة مدهشة رغماً عن كل مايقام دونه من العوائير . اذن فلم يبق عاينا الا ان نبرهن انا حقيقة اخلاف اولئك الاقيال الذين يقول عنهم (سديوودروى) انهم كانوا اساتذة العالم ومهذبيه فهل يأتي على المسلمين زمان يلتفتون فيه الى ما بين ايديهم من نوااميس الحياة فيدهشون الامم بسرعة نهوضهم من كبوتهم كما ادهش العالم اباؤهم من قبل ؟ « نعم ولتعلمن نبأه بعد حين »



obeikandi.com